زُورق نُور الهُدى

الخبزُ من
بيتِك ..
المِلحُ من بيتِي.

الخبزُ من بيتِك

الملحُ من بيتِي

زورق نور الهدى

على مدى عُمرٍ، خنتُ اسمي حتّى، اعتدتُ أن أترنّم بحروف اسمي حين يُناديني الجميع "هِداية" ذلك لأنّني معتادة جدّا على تلك الأصوات في وقعِها، وحدَك ناديتني "نُور"

لم ألتفت، ذلك لأنّني أُسمّى "نورَ الهِداية" ناديتَ للمرّة الثانية:

-نُور!

فشعرتُ أنّني وُلدتُ من جديد، فسمّيتُ من جديد!

التفتُّ لكَ أخيرا، أشرتُ إلى نفسي بإصبعيَ قائلة:

-تقصدُني؟

قلتَ مؤكداً باسماً:

-من غيرُكِ؟

ظللتُ لأكثر من دقيقة أتغزّل بجملتِكَ تلك، كم راق لي وقعُها على لسانِك حين قلتَ "من غيرُكِ"

للَحظة.. جعلتَني أشعر كما لو أنّني نورَ الوحيدة، كما لو أنّ اسمي يعنيني وَحدي، خُلِق لي!

لم تكن حقيقيّا تماما! كأنّما كنتَ سراباً، أو حَالِماً شاركنِي حُلماً ذات فجرٍ، تمسكتُ بحقيقة كونَ أحلام الفجر اكثرُ من مجرّد أحلام، كُنتَ أكثر من حلمٍ، خليطٌ مطرّزٌ من رجالٍ كُثرٍ بطريقة جزائريّة، لم أحِب الجزءَ الّذي لطالما كتبتُه من قصّتنا بقدرِ ما أحببتُ جزءَنا الواقعيّ، جُزءنا الّذي لطالما عشناه بحذافيره، دون أن نجد الوقت لنكتب ما نعيشَه..

بين هذا و ذاك!

بين كلّ ما يحدث في هذا العالم الفوضويّ؛

كان هناك عالمُنا الهادئ الصغير المُكابر.. أقول "كان"

لأنّ ما كان لا يمكن أن يُخلَق من جديد ليصير حاضراً.

ما هذه إلّا بضعُ مذكّرات منّي أو منّا.. ليس لي عِلم إن كانت حقيقيّةً أو كذبةً بيضاءَ شبيهةُ أكاذيبِ الكُتّاب، صدّقني.. الأكاذيبُ خرافة، لم أقابل شخصاً يتقنُ موهبة الكذب بعد، داخل كلّ حقيقة ستجدُ كومة من الأكاذيب، و داخل كِذبة واحدة حتما ستعثر عليكَ الحقائق،

حقائقُ لن تسعدَ بمعرفتِها، حقائقٌ تسجنها الأكاذيبُ البيضاء، دائما ما كنتُ مناصرة لمَا يخدم مصالِحي، تلك المصالحُ الّتي لا تثيرُ ألم رأسي، لا تقتلُني مرّة واحدة!

أرجوكَ.. استمتع بقراءة أكاذيبي، أرجوكِ.. لا تقومي بكشفِ أسراري، أدرك أنّ للأنثى عينٌ ثالثة ترى بها ما يخفى عن الرجال..

لذا، لا تقومي بفضحي!

في الأخير، أظنّ أنّ الأشياء المرغوبة هي تلك الّتي لم نحصل عليها، هي تلك الأشياء الّتي لا زلنا نقاوم لنحصل عليها.. ما كانت لتكون كذلك لو لم تتطابق مع حوّاس الغياب!

دائما ما أغازلَك بيني و بين نفسي قائلة باللّغة الإنجليزيّة بلَكنةٍ أمريكيّة:

-You're too good to be true!

" كِذبة بيضاء (تاءُ الوداع) "

من بين الجمعِ أجمع و وَسَط الضوضاء المُحاطة بي، لمحتُه يلمع، لم تكن لِتلاحظه فتاةٌ سطحيّة.. همّها الوحيد كونَ مرافقهاَ في رحلة الحياة بمثابة ورقةٍ رابحةٍ تشتري لها سيّارة باهظة الثمنِ، أوَ تأخذَها نحو المحلّات المشهورة لتقتني ما ترغب به! لاحظتهُ بعد فترة طويلة من بحثي عن أشخاص فيهم شيءٌ من الاختلاف، شيء لا تطاله يد قلمي!
منذ ذلك الحين قرّرتُ ألّا أُبعد عيناي عنه، تركتهما داخل جيبه، راقبته بكلّ ما أملك من هوَس، وضعتُ كلّ ما استثمرتُه من السنوات الماضية في سبيل مشروع كتابتي له، تبعتُه نحو مقرّ عمله، نحو محلّ الملابس الّذي كثيرا ما يزوره، عرفتُ حتّى نوع الشامبو الّذي يستخدمه.. ثمّ ذات يوم، سئمتُ الاختباء وراء الأشجار و السيّارات، و قرّرتُ الظهور أمامه باستخدام حيَلي الاعتياديّة، لم تكن أيّ حيَلٍ نسائيّة، كانت حيَلي! لي وحدي، لا يعرف عنها باقي النّساء شيئا.. و كما تصطدمُ بنا المصائب و الصواعق غيرُ الاعتياديّة اصطدمتُ به، سقطتُ عن غير عمدٍ، و كما هو الحال مع كلّ الأشياء الاستثنائية،

يكفي أن تقرّري إسقاطَها حتّى تُسقطُكِ! مدّ يدَه نحوي بينما أنا في العالم الآخر أغرق داخل علامات رُجولته، و كأنّني لستُ تلك المرأة ذاتُ الاحتياطات المُسبقة! أين هي قامَتي الشامخة أمام الإغراء! ما بالِي أُظهر كلّ هذا الإعجاب! سمعتُه يهمس مع ابتسامة خفيفة:

-سيّدتي.. تُراكِ ذهبتِ إلى مكان ما أم لا زلتِ هُنا!

قُلت دون وعي:

-عقلي ليس هُنا.. لكنّ عيناي هُنا!

استيقضتُ من غيبوبتي بعد كمّ كبير من النظرات الّتي حتما كانت تشي بي، و حتماً تُذهِب مقاطعاتي السّابقة سُدًى..

أنتَ الفائز كما تجري العادة!

بعد أيّام قليلة، وعدتُ نفسي فيها أن ألتزم بمقاطعةِ هوَسي ذاك إلى الأبد، حبستُ نفسي داخل الغرفة، رميتُ نفسي وجبة للاكتئاب، نسيتُ حاجتي إلى الطعام في أغلب الأوقات، نِمتُ ليلا نهارا، بكيتُ دون سبب، عجزتُ عن الخروج من البيت عند حاجتي لذلك، حتّى أنَّي ظننتُ أنّني قد أصاب بالرهاب الاجتماعيّ في وقت قريب، انهارت صحّتي النفسيّة، و بدأتُ أشعر بالدوّار لمجرّد بذلِي لمجهود عقليّ بسيط!

ثمّ ذات يوم عاديّ جدا، أتَاني! بكامل أناقته داخل باقة وردٍ، لم يأتي بكامل طوله و عرضِه، بل كان غائبا حاضراً بباقة توليب، لا أعرف ممّن و كيف عرف حبّي المقدّس للتوليب! لكنّه عرف!

كعادة الرّجال الغامضين، أتاني غائبا في يوم لم يكن يشي بمجيئه شيءٌ! لا الجوّ و لاَ حالةُ غرفتي! لا حدسي و لَا صريرُ البابِ! بتنازلِ شخصٍ لا يعرف التنازلَ، تلك كانت هديّتي الّتي لن يزول أثرُها و إن زالت رائحة الباقة! أطلتُ النظَر إلى الفراغ لفترة طويلة، ثمّ رميتُ نفسي فوق السرير، ناظرتُ السقف دهراً، غرقتُ داخل دوّامة، و لعلّي سأغرق أكثر لو أردتُ وصفَها ثمّ قرّرتُ إيقاظ نفسي قبل أن تذبُل هديّتي، عانقتُها و خبّأتُها داخل قلبي قبل كلّ شيء.

رأيتُه مئات المرّات يمرّ مرتكزا على أصابع قدميه، بينما كنت أغفو داخل مستشفًى في إحدى المُدن، رمقتُه بنصف نظرة، و عدتُ إلى طاولة التفاوض مع الموت، فقط للحصول على مزيد من الأيّام رغبةً في بعض الذكريّات لتقاسمها مع أهل الجنّة.

بضعةُ ليالٍ دون وعيٍ منّي، و بضعةُ نظراتٍ بديهيّة موّجهة نحو رجلٍ لم يحدث أنْ كان هُنا، ذلك الحائط الّذي سئِم منّي، و السقف الّذي تكاد تُسقطُه عيناي!

و دوّامتي الّتي رافقتني منذ نعومة أظافري، و هذا النّص الخرافيّ تارة و الحقيقيّ تارة أخرى!

و أنا في الوَسط.. بين كلّ هذا و ذاك..

يقرأ لي بعض الأشخاص غير مكترثين لمصدر قصّتي، بينما لا أعلم حقّا من أين آتي بِمصدرها!

-قبل أن تنفذ علبة السجائر-

لا أظنّ أنّ هناك ما هوُ أكثرُ عداءً من الفراغ؛
كلّ ما أعيشُه، كلّ ما سبَق و عِشتُه.. كلّه بسبب تشبّع حياتي بالفراغ، انعكاس اكتئاب هذه الأيّام عليّ لم يكن سوى لأنّني لا أجد شيئا لفِعله، ربّما لو تواجدتَ هنا، لوجدَت عيناي ما تفعله، لربّما كانت لتضعَك أمامَها و تبدأ بكتابتكَ كما لو أنّها رسّامة مُتفانية في رسم لوحاتِها!
بطبيعتي، لا ألتزم باتجاه واحد، على الأقلّ كُنت! اعتدتُ أن أبحثَ عن نُقَطِ الضوءِ في آخر الأنفاق، نسيتُ أنّكَ النفق! تبعتُ النّفق و نسيتُ كَون مفتاح الباب في آخره يسكن داخلي، لا بدّ لهذا أن يعني أنّ منزلِي يسكنُك! فضّت انشغالاتي، انتهيتُ من قراءة كتبي، تجاهلتُ روايتي، فضّلتُ كتابة خاطرةٍ طويلة عن الحبّ بدَل كِتابة فصلٍ واحد فيها، كانت مُزدحمة بك، و كنّا على خِصامٍ، لذا طبقتُ ما أملتهُ عليّ بضعُ مراهقات، قلنَ ابتعدي عن كلّ ما يذكركِ به، فابتعدت! تذمّرتُ من كآبة الأجواء حولي في غيابكَ، ألقيتُ اللّوم على الأضواء في منزلي، طبختُ طعاماً أحبّه، شعرتُ بالتحسن للَحظات معدودة، ثمّ عاد الفراغ ليُسيطر على كامل أجزاء حياتي، كأنّما يعدّني لأكون النّسخة الأكثر يأسا من البشر، كأنّما يجعلني أعاني كي أستحق تلك الميتة العظيمة، تلك الّتي لا ينتهي إليها أصحابُها ببساطة، بل يمرّ الواحدُ منهم بعراقيل عظيمة لِيتمّ رميه بعدَ ذلك نحوها مع كثيرٍ من الجوائز،

يُخيّل لي أنّ العار تاج سنتوّج به حين تنتهي هذه المهزلة، لا لِشيء سوى لخضوعنا البائس هذا! و حُزننا الباذخ الشهيّ في مرحلة مضت! لم أكن لِأسمح للحياة بأن تلعب بطرف ثوبي كما تفعل الآن، تقول أنّني خُلقتُ لأنام فوق سريرها بينما أسمع زوجي المستقبليّ يغازل امرأة ناقصَة الجمال ذلك لأنّه أعمى، و ناقصةَ العقل ذلك لأنّها تحادث رجلا متزوجا! أسمعه يُمطرها بكلمات لم أتمنّى يوما أن يمطرني بها، ذلك لأنّني في رواية أخرى كنت قد تزوجته لا لشيءٍ سوى لكوني بحاجة لأمارس الكتابة بعيدا عن أنظار العائلة، بعيداً عن ثقلِ حبّي لكَ.. صدّقني، الأمر بهذه البساطة بالنسبة لي، الزواج اليوم و الطلاق غدا إن أردت.. أسمعك تمارس حقّك الرجالي مع نساءٍ غيري، و لا أشعر بالغيرة بتاتا، بحقّك! كيف يُعقل أن تغار عليكَ امرأة لم يحدث أن أحبّتكَ! تقول ماذا عن عقدِ زواجنا؟ يظنّ التقليديّ داخلكَ أنّ الزواج معاهدة على الحبّ طيلة الحياة، الشعور بالفراشات طيلة اليوم، تقبّل يدي حينما تخرج، و أُناديك بِزوجي العزيز، لطالما كان هذا مفهوم الحياة المثالية بالنسبة لرجل عاديّ جدّا لم يكن يوماً العاديّ الّذي أحببتُه، اعذرني.. لم أفهم يوما مصطلح "المثالية" كبرتُ إبنة مدلّلة من ناحيَة ما، و قاسية لا تعتمد على والديها من ناحية أخرى، بطريقة ما.. كبرتُ فصِرتُ باردة العائلة، يمكنني أن أكون الزوجة الأبرَد على الإطلاق، برودة مظهري الخارجيّ تفوق دفءَ كتاباتي ، أطبخ ما أطبخ، أنام متى شئت، و أينما شئت! النّوم بجانبك أو على الأريكة.. لا يهمّ! لا

صباحَ الخير و لا تصبح عليه، لا حللتَ سهلاً و لا وطَئت سهلاً، لا حبيبي و لا نورَ عيني، لا غازلني و لا "ما رأيكَ في قميصي الجديد؟"

شتّان بين أن أرمقك بنظرة التضايق و نظرة البرود، شتّان بين أن أكون زوجة متذمّرة و زوجة غير مُكترثة!

أرمق إمكانية جعلِك تقع في حبّي، تلك الإمكانية الّتي دائما ما ألمحُها في خطوطِ يدي، ثمّ أتذكرُ وقوعكَ في حبّ الفتيات أجمع مرّة واحدة..

يمكنني أن أكون توبتَك النصوحة، و انغلاقَك الأخير، أستطيع لكنّني لن أفعل!

أبردُ من أن أفعل، أبردُ من أكترث لكلّ هذا الحبّ المعلّق!

عزيزي، لطالما ظننتُ أنّك الرجل المنشود، الرّجل المناسب! حلمتُ و حلمت.. تلاعبتُ بكلماتي إذا ما حادثتُك ، قلتُ نعم و لا في آن واحد، جعلتُك تشعر بالحيرة، قلتَ:

-حدّدي إجابة واحدة.. و أرسليها! فهمي روحك!

أجبتُك متذوقة طعمَ بالإنتصار:

-فهم روحك نتا، اللي عليا درتو.. دير اللي عليك!

لكَم كنتُ أهوى إيقاعك في الحيرة، جعلك تتساءل بكثرة أنتَ الرّجل الّذي يحبّ الاختصار في كلّ شيء، لطالما ظننتُك باردا.. باردا جدّا، عاتبتُك قائلة:

-ما بالُك تردّ بكلّ هذه البرودة!

أجبتني:

-بماذا عليّ أن أردّ!

حينها أدركتُ أنّني أظلمك، أدركت أنّني لو قابلتُ الجزء الواقعيّ منك، ما كنتُ لأجد سوى رجلا دافئا، مُحترقا بعض الشيء..

ابتسمتُ برَضى، شعرتُ بالدّفء لبضعة دقائق، للَحظة، وقّعتُ على ورقة انتصاري، لطالما كنت الفائزة، خدعتُكَ برسائل العتاب، أتظنّ امرأة مثلي واقعةٌ في حبّ رجلٍ مثلَك! تقول:

-لِمَ لا!

نختلفُ كثيرا، امرأة مسطّرة بالحروف و رجل لا يكفّ عن العمل، أعترف.. لطالما كنتُ مُعجبة باجتهادك، لكنّ الأمر قد خرج عن دائرة سيطرتك بالفعل! ما عدتَ تجد وقتا لتراسلني، ما عدتَ تهتم! تظنّني أعاني نتيجة لِممارستك الغياب بكلّ براعة؟ نعم صدَقت، أعاني و من أعماق أعماقي، لن أُنكِر ذلك، لكنّنا نعلم أنّك الخاسر الوحيد، كِلانا يعلم!

امرأة مثلي لا تتوفّر كلّ يوم، امرأة مُستسلمة جميلة، باردة و دافئة في آن واحد، بربّك أين يمكنك أن تجد شيئا كهذا!

اليوم ال28 من شهر ديسمبر، حضّرتُ كوب قهوة، و عاهدتُ نفسي أن أكتب لك أو عنكَ أو إليكَ، سمّه ما شئت، اعتبرني عاشقة أو كارهة، واقعة فيك أو في زيف تصرفاتك، لا يعنيني منكَ سوى كتاباتي إليكَ،

لم تكن كاتبا قطّ، ليس بإمكانِك أن تفهم ما أرمي إليه لا اليوم و لا غداً، لطالما كُنتَ مشروعي الكتابيّ الأوّل، منذ كتبتُ أوّل تعبير كتابيّ، رأتكَ أستاذة اللّغة العربيّة داخل عينيّ، قمتَ بإغوائها فقامت بمَدحي، أذكر أنّها عرَضت عليّ المشاركة في مسابقة للشّعر، و بدوريَ تساءلتُ بكلّ غباء:

-ما هذا!

لم أكن أعي ماذا تعني الكتابة، لم أعلم أنّ الكتابة ذنب لا موهبة، ليس قبل أن أتعثّر بك، فنتبادل اقدارَنا، تأخذ حظّي كأنثى محظوظة بموهبتها، و آخذ منك حظّك السيء كرجل جزائريّ، قلتَ:

-سيّدتي، أخشى أنّكِ أجمل من أن تحملي كلّ هذا!

لم أستطع إخفاء ضحكتي، ظهر كبريائي، قلتُ بصوتٍ مكتومٍ و نبرة معاكسَة لما يُظهره مظهري الطريّ الشفّاف:

-سيّدي، أخشى أنّني بحاجة إلى اللّحاق بالقطار التالي، لديك خياران، إمّا أن تبتعد عن طريقي أو أن تواجه مصيرك مع الجمع الّذي سأحرص على جعله يقدّم لكَ خطابا في الأخلاق!

ضحكتَ ساخرا منّي، كأيّ أبله جزائريّ، بدأتَ تقلّل من شأني، سحبتَ مدحكَ لي، و بدأتَ تعاكسني من جديد حين لم أردّ على قلّة حيلتك الرجالية تلك! لطالما كنت بارعة في التعامل مع الرجال، أضرِبهم دون ضربهم حقّا، ضربة في المنتصق تماما!

مضيتُ أمشي دون وجهة، لم يكن القطار بانتظاري، كانت تلك حيلة نسائية أخرى، مجرّد جملة جاءت في سياق الحديث، يسمّيها الرجال "كِذبة" و تسمّيها النّساء كذبة بيضاء..

تقول صديقتي:

-كون ما تكذبش ما تقدرش تعيش!

مررتُ نحو منزلها، تذكّرتُ بداية ايّام البكالوريا تلك الّتي أمضيناها بين توتر اقتراب الامتحان الرسميّ و قضيّة العشق المستحيل، تحدّثني عن حبيبها السابق، تخاف أن يبدأ حياة جديدة، أكبرُ كوابيسها أن ينعم بحياة هادئة و بالٍ مرتاح! أوافقها الرّأي في كون تمنياتِها له عن دوام سوء الحال لابدّ منها هو الرّجل الّذي حطّم حياتها بكلّ ما يملك من اتهامات و مُهاجمات، حتّى أنّي قد كرِهتُه كِرها شديداً، و بدَت لي محقّة في كلّ ما تكنّه له من مشاعر الكره، حتما غير مُخطئة في مقاطعتِها له! تستيقض كلّ فجرٍ، تتلو الصلوات واحدةً تلو الأخرى، تتمنّى له حياةً مُريعة، تتمنّى له زوجة بشِعة و أطفالا عاقون! تقول أنّ نجاحها قد يكون بمثابة جنازة بالنسبة له، أوافقها الرأي حسب ما استنتجتُ ممّا سمعتُ منها حول ما مرّ عليهما، يحيط بها الضعف أحيانا فتسألني:

-نور زعما يرجع؟

أذكّرها فورا من تكون، لا أقول لابدّ له أن يعود، بل أعود بها إلى الوراء قليلا، ثمّ أشير إلى كلّ الدمار الّذي تسبب به، حتّى أنّني قد أشعر بشرارة صغيرة من الغضب تهرب من داخلي لتَظهر على ملامحي، أرفع

حاجبي، أوّجه إليها سؤالا أعلم أنّه كفيلٌ بِزرع القسوة فيها حتّى الأعماق بغضّ النظر عن تِلقائية إجابتِها.. أقول:

-كون يرجع ترجعيلو!

تأخذ دقيقة لِتفكّر في الموضوع، لا أحتاج إلى جواب، أعرفها بالفعل، هي المرأة القويّة في غيابه فماذا لو عاد! أظنّها سترميه بكلامٍ جارحٍ ثمّ تمضي نحو انشغالها التالي باسمةً غير مُدركة لكونها قد وقّعت على انتهائها منه للتوّ.. تجيبني قائلة:

-لربّما أعود.. من يدري!

أواجهها بنظرة تحدٍّ قائلة:

-حقّا؟ ماذا بعد!

تقول:

-ثمّ.. ثمّ نتزوج!

نعم نعم.. ثمّ تتزوجان، بهذه البساطة! ثمّ ينتهي بكِ الأمر هاربة نحو بيتِ الأهل شاكيةً لهم عن الصغير الّذي كنتِ قد تركتِه ذاتَ ليلة دون طعام لا لشيء سوى لأنّ المدلّل زوجكِ لا يجد عملا..

لطالما نصحتُكِ قائلة أنّ معيار الثقافة أهمّ معيار، شتّان بين زوجٍ متخرّج من الجامعة و آخرَ لم يدرس بالثانويّة حتّى، شتّان بين عاملٍ مجتهد و آخر يعمل فحسب!

أمّا عنّي، فلا أظنّ أنّني قادرة على وضع حياتي بين يديّ رجل جاهل غير عالمٍ، لم يذق طعم السنوات الأخيرة للدرّاسة، كيف له أن يحمل حياتي بأكملها ثمّ يحمل أكثر من حياتين أنجبهما له هو الشقيّ الّذي لم يشقى سوى حين كان يفتح علبة الدخّان الجديدة، بينما كانت يداه زلِقة!

لا يمكنني وضع ثقتي بين يدين زلِقتين!

أخشى أن أنزلق من يديه ذات يومٍ، و ينزلق معي كلّ شيء آخر، أخشى أن أتعب طيلة حياتي من أجل الحصول على عمل مرموق يناسبني، ثمّ يأتيني رجل جاهل-حابس فالابتدائي- يدفنني بتقاليده، يقول أنّ مكان المرأة الفعليّ هو المطبخ، يغازلني بكلمات جدّ تقليديّة، يحولّني إلى جاريةٍ عملها الوحيد هو مطاردة الأشغال المنزليّة، مُتعتها الوحيدة هي مشاهدة التلفاز ليلا!

بين كلّ ذاك و ذاك، كُنتَ أنتَ!

المناسب جدّا، الرّاقي و المرموق!

الرّجل المنشود!

بينما جلسَت صديقتي على سجادتها تبكي حظّها تدعي على سابِقها ، تمطره بسوءِ الدّعاء، كُنتُ جالسة فوق سجادتي أشكر اللّه على رجلٍ مثلك، رغم عدم رسميّة الأمر بالنّسبة لي إلّا أنّني دائما ما رفعتُك في عيني عن الجميع، تأملتُ صورتَك، قرّبتُ تفاصيلك، تساءلتُ:

-أكنتَ دوماً هكّذا؟ أم أنّ عيني هي الّتي لم يسبق لها أن وقعت في الحبّ هكّذا!

لطالما ميّزك اللّه في عيني، بطريقة ما.. لم يكن باستطاعةِ شخصٍ آخر أن يراكَ كما أراك، واثقة من ذلك، رُغم البُعد إلا أنّني دائما ما كنت هناك، أقف بجانبك، أجلس فوق سريرك، أهنّئك في أفراحك، و أعزّيك على موت القريب و البعيد، حتّى أنّني قبّلتُك أكثر من مرّة دون أقبّلك حقًّا، تبادلنا القُبلات ألفَ مرّة، لكن لم يحدث أنِ امتّدت شفتُك و لو قليلا! أمّا شفتي فيُقال أنّ امتدادَها جريمة! بيَد أنّني فتاة في كلّ الأحوال، الكتابة و تخيّلُ القبلات و مغازلة الجدار صباحاً، هذه أمور محرّمة جداً في قبيلتِنا، أمّا قبيلتُكَ فليسَ لها سلطة عليكَ، بيَد أنّك رجل! ربّما لو دقّقت في الأمور من منظورِ أختِك أو ابنتها، كان سيُخيّل لكَ أنّها قبيلتي الثانية! يا تُرى هل وقعت عينُك على نورِ بوابتي السريّة يوماً؟ ألم يسبق لكَ أن عثرتَ على ملفاتٍ قديمة كنتُ قد خبأتُها في الأعماق حيث لن يصل لها سوى من يتعمق فيّ! أم أنّ الحبَّ عندَكَ لم يصل حدّ هذه النقطة! هل عبرتَ إليّ في ليلة لم يكن يشي بعبورك إليّ شيءٌ!

هل سبَق و منحتَني قُبلة بينما كُنت أغرق داخل فراغي!

أنا فعلت!

تحدّثنا لمدّة طويلة، تحدّثنا عن أشياء كثيرة، ذكرنا اللّقاء كمصطلح دخيل، لطالما علِمنا أنّ اللّقاء هو كلّ ما كان يعنينا يوما، لطالما تلقيتُ

كلامك و فهِمتُه، قلتَ لي ذات تلميحٍ أنّك لا تحبّ هذا النوع من المحادثات، لا يروق لكَ كوني أتلاعب بالكلمات دون أن تستطيع رؤية تلاعبي بشفاهي حين أتحدّث بصوت مسموع! أخبرتُك عن كَوني غيرَ بارعة في التحدّث غالبا فوق أرض الواقع، بلغة أخرى تُقال "باردة"، أكثر برودة من أن تكون نبرتي مسموعة بالنسبة لك، قلتَ:

-لا يهمّ! يمكنني تغييرُكِ..

أخبرتُك عن الصعوبة الكبيرة في التعامل معي، بينما كنتُ أدرك جيّدا أنّك الرجل الوحيد الّذي سيُحسن التعامل معي، حتما سيحسن تقليب الحقائق داخل عقلي و البحث عن الحقيقة الوحيدة الّتي لطالما كان مهتما بها، حقيقتُه داخل كتاباتي، الحقيقة الوحيدة الّتي لن أُفصح عنها ما حييت!

سألتَني عن الرجل المنشود المقصود داخل النصّ و الآخر، غالبا أشرتُ إلى الكذِبات النسائية أو كذِبات الكُتّاب عامّة.. قلتُ:

-قل لي أنت! من يفترض به أن يكون؟ ربّما هي فقط حيلُ الكتّاب المتعلقةُ بتأليف القصص!

رفعتَ حاجبَك كما يخيّل لي، سئمتَ طرح الأسئلة ، ثمّ أجبتَني بنبرة غاضبة فقط لو كان بإمكاني سماعُها، قلتَ:

-فليكن! لا أظنّكِ تتحلّين بالصّدق الفنيّ، خابت ظنوني..

خابت آمالي، و مال ثغري نحو الأسفل، شعرتُ برغبة في البكاء حين لمحتُ رسالتَك تلك، أردتُ الاعتراف لكَ عن كلّ ما أشعر به، أردتُ القول:

- أنّت الرجل المنشود.. لطالما كنتَ!

أردتُ القول:

-أنا هي الصّدق الفنيّ بحدّ ذاته..

بحقّك! لكَم ظلمتَني ذاك اليوم؛ أجبتُك أخيرا:

-بلى، أتحلّى به، لكن لا أظهِره!

زاد استفزازُك ، قلتَ:

-لا تحبّذين الكشف عن أسرارِك..

أجبتُ علامة الإيجاب قائلة:

-من يفعل!

قلتَ:

-أنا!

لكَم سخرتُ من رسالتكَ تلك، أنتَ! أحقّا أم أنّك تختبر صبري فحسب! أم أنّ كلّ ما كنتَ تحاول فعله في تلك الليلة هو كبُّ النار فوق الجليد.. إشعال غضبي في ليلة هادئة كتلك!

جاءك ردّي البارد المستسلم:

-أنتَ فقط!

لطالما تأملتُ حياتَك و جريانها الغريب، و غالبا ما افترضتُ انشغالك عنّي بحبيبة جديدة، صدّقني.. يقتلني افتراض وجود الأشياء الجديدة، للَحظة يوجّهني عقلي إلى حلّ وحيد مباشر، أن أواجهك قائلة:

-ما بالُك تمضي قدُما! بحقّك اَحبّني.. ذلك واجبُك!

كنتَ لتحبّ غيرتي هذه، لكنّني ما كنتُ لِأحبّ طريقة إدراجكَ لها داخل قائمة الفتيات اللّاتي سقطنَ داخل حفرتِك لتوهنّ! حتما سيأكلني الندم فورَ النقر فوق زرّ الإرسال، ثمّ سأحطّم رأسي غالبا! بيَد أنّك المُختار من قبِلي، ليس من قِبَلنَا معاً، و لا أظنّنا مناسبَين لنكوّن عائلة صغيرةً سعيدة، أظنّ أنّ تشتّت العائلات دائما ما يبدأ بنقاطٍ صغيرة كهذه، تمسكٌ شديد، و إفلاتٌ عظيم في المقابل، بكاءٌ يخصّ الورق كلّ ليلة ، و نومٌ هانئ لرجلٍ لا يهتمّ.

ثمّ فجأة، تأتيني رسالة قصيرة تبثُّ داخل قلبي كومة من الطمأنينة، دون أن تدري، تجعلني أتنهد بعد يومٍ طويل من حبسِ أنفاسِي حين تقول:

-كان يومي عاديّا جدّا.

أقول:

-هل تعني أنّك لم ترَ شيئا مميّزا!

تجيب:

-مثل ماذا!

أقول:

-لا شيء..

ثمّ أبتسم بكلّ رِضَى، أمضي نحو انشغالي التّالي مستعدة للخوض في كلّ الأمور الّتي من شأنها أن تتعبني كثيرا لو كان جوابك مغايرا بطريقة مزعجة..

بحقّكَ، أحبّني كلّ يوم، يجعلني حبّك نشيطة جدّا؛

يجعلني سعيدة و غير مُبالية بآلامي الجسديّة اليوميّة، ألَم يسبق أن شعرتَ بالمَثل! اعثر على حبيبة تجعلكَ تتذوقُ ذاتَ الأحاسيس إن شئت! لكن.. أرجوكَ، لا تجعل الأمر ظاهرا!

دائما ما كنتَ تلقي لومَ فسادِ المجتمع على التبعية للغرب و على النساء المتحرّرات، ثمّ تُنهي كلامَك بقولِك:

-تخلّصي من تحرّركِ قبل أن تُعدَمي نتيجة لها، تعلمين أنّني لن أقف في صفّكِ بعد التصاقها بكِ، ذلك لأنّ تحرّرَ النساءِ جريمة عربيّة.

قلتَها كلمةً كلمة! دون أن تحسَبَ حساباً لمشاعري، دون أن تحسبَ حساباً لِكوني حسّاسة جدّا تجاه هذه الأمور..

لم يسبق لي أن كنتُ متحرّرة، لكنّني حتما تمنيتُ حياةً عادلة، حياةً لا أكون فيها مجرّد جارية، أقدّم الحبّ فأحصل على الحبّ بالمقابل، أقول أحبّك بطرق عديدة، و يقولها الطرف الآخر بطريقته الوحيدة الّتي

يحسنها.. فقط" أحبّك " تكفي، ليس عليكَ أن تمطرني بالأشعار، ليس عليكَ أن تتلاعب بالكلمات حين تغازلني، يكفي أن تقول:

-يسعدني كونكِ هنا..

بذلك القليل أنا أسعد، أمنح نصوصي الطويلة لمَن يستحقها، أكتب عن المقصود دون أن أخفي شيئا، دون أن أحتاج إلى غِطَاء، دون أن أخاف أصابع الاتّهام، دون أن أقول أنّ رجليَ النصيّ مجرّد رجل قمت باختلاقه ذاتَ ليلة حين شعرتُ بالوِحدة! أخرج صباحاً فلا تسقطَ فوقي نظرات الشبّان، وَ لا يداهمني الشعور بكَوني عارية بكلّ اللباس الّذي أرتديه، فلاَ يُقال بذلك ما اعتاد معاكسوّ الفتيات في الشارع أن يسمعوه! أخرج ليلاً لقضاء حاجاتٍ ضرورية لا أملك خيارَ انتظار الصباح من أجل قضاءِها، فأتفاجأ بهدوء النظرات من حولي، لا غضباً مخفيّا داخل أعين شيوخ المساجد، و لا قهقهاتٌ و همساتٌ و إشارات متجهة نحوي إذا ما مررت.

أظنّ أنّ الحريّة و التحرّر الكاملَ مصطلحين مغايرين تماماً، الحريّة ملك للنساء و الرجال، إن كنتُ شريفةً بتحرّري و استقلاليتي و إقراري بكَوني انتهيتُ تماماً من الاعتماد على الآخرين، فذلك أمرٌ يخصّني وحدي.. لا يخصّ المتشردين أمثال الجالسين فوق كراسيّ العار طيلة النهار بينما لقمة العيش الوحيدة الّتي يكسبونَها نظرةُ فتاة غيرُ متعمَّدة.

نعم كنتُ مستقلّة بعض الشيء، لكن في قرارة نفسي وددتُ لو أكونَ تحت سيطرة رجلٍ قويّ لا يحبّ السيطرة..

أكونَ نورهُ و هدايتُه!

أكتبه قبل أن أحصل عليه، ثمّ حين أحصل عليه أتفاجأ بكونه مناسباً جدّا ليُكمَل ما بدأته يوماً..

يستيقظُ صباحا، يقرأ ما كتبتُ ليلة البارحة، يبتسم لغزلي الّذي لا يراه سوى في النّصوص، يترك تعليقا يتعمّد به أن يخطف أنفاسي، تُخطَف أنفاسي بالفعل حين أقوم بقراءته، ثمّ أترك ردّا أتعمّد به إثارة شكوكه.. أقول:

-ما الّذي يؤكد لكَ كون هذا النّص يقصدك و ينتهي إليك! ماذا لو كنت أقصد سابقا أو ربّما لاحقا!

يقرأه بينما تسقط منه ضحكة عفويّة، يرميه صديقٌ بنظرة شكّ، فيبتسم له.. لا يبالي بكَون أصدقائه يحيطون عِلما بأمري أم لا، لكن.. غالبا يحاول إخفائي عنهم، ذلك نوعي المفضّل!

يسأله الصديق متدخّلا بما لا يعنيه قائلا:

-ما قصّتك!

يقول كعادته:

-واش دخلك؟

يقولها بينما يبتسم، بينما تقتله الفرحة، تكاد تجعله يطير!

يردّ على ردّي عليه ثمّ يضع نقطة اطمئنان في النّهاية:

-لا بأس بذلك! في الأخير أنتِ كاتبة، يفترض بكِ أن تكتبي عن الجميع، لكنّ ما لا تعرفينه أنّ جزءكِ المخفيّ، جزءكِ الّذي لا يظهر للآخرين.. ذلك الجزء أراه كلّ يوم، حتّى عندما ترسلين رسالة، هل تصدّقين ذلك!

لا أردّ، أبتسم فحسب! أهمس لنفسي:

-أصدّق.. أصدّق!

في قرارة نفسي، أعلم أنّ يدكَ قد ساهمتَ كثيرا في جعليَ أتسلق القمّة، لا زالت القمّة بعيدة، أمّا عنكَ.. فأبعَد! لو لم ترمِني لذلك الفراغ لمَا بحثتُ عن حبلٍ أتسلّق به إليكَ، لمَا كتبتُ عنك!

"السعداء لا يكتبون!"

أعتنقتُ هذه العبارة منذ زمن، رغم عدم معرفتي لحالتي النفسية الحاليّة، إلّا أنّني ما كُنتُ لأبدأ الكتابة لو كنتَ متوّفرا دون أن أكتبَك! عدتَ إليّ حين قرأتَ نفسكَ داخل إحدى نصوصي، قادك الفضول نحوي من جديد، أحطتُ نفسي بكثير من علامات الاستفهام، أدركتُ أخيرا أنّ الرّجال لا يحبّون النّقط، النّقط تتميّز بنوعٍ مملّ من التوقف، تجعلك تشعر كما لو أنّك مجبر على التوقف هُنا، وَ البدأِ بمَا تقرّه عليكَ فورا، الزوّاج المبّكر و إنجاب الأطفال دون التوغّل في عقليّة الطرف الآخر، خسارة كبيرة مسطّرة تحت باب الزوجيّة المبّكرة، الاهتمام بالطّفل الجديد و الملل الظاهر ثمّ نفور الزوجين من

بعضهما.. كلّ هذا لم يكن ليَحدث لو انتظر الطرَفان قليلا قبل أن يضعا نقطتَهما! كان يمكن لهما أن يفصلا بين الجملة و الجملة، يستريحا قليلا، يُلقيا نظرة على مستقبل هذه العلاقة الانتحاريّة ربّما! لكنّني لا أهتم حقّا، أحبّ الانتحار من شرفة عينيك!

لا شيء أهمّ بالنّسبة لي من عدّة سطور أكتبها لك واصفة عينيكَ مثلا أو طولك الشامخ، لا شيء يبقيني منتشية لمدة طويلة كما تفعل بي كتابتُك، لذا عادةً أقول أنّني جدّ محظوظة بموهبتي هذه، لا لشيءٍ سوى لكَوني أستطيع اختلاقَك متى ما شئت، و كيف ما شئت! يمكنني جعلُك تنطق بعبارات لم تكن لِتنطق بها، أجعلُك تعترف بأشياء حقيقيّة و أخرى لم تلتقط أذنك سيرة عنها حتّى، أحوّلك إلى خائنٍ أو أمدح وفائك الغريب! لطالما تميّزتُ بتناقضي المُبعثر، ذلك التناقض الّذي يجعلني أدرج أحبّك و أكرهُك في جملة واحدة بطريقة تجعلُكَ تشكّك في كَوني أحبّك حقّا أم أكنّ لك الكِره الخفيّ أو أعتبرُك مجرّد شخصيّة داخل رواية ، مجرّد لعبة كتابيّة، أتلاعب بها، أجعلها تهمس بما أريد لها أن تهمس، فقط لتذهب بي إلى حيثما أريد، إلى أرض الإلهام! أجمع ما يلزمني من الإلهام، ما يكفيني لشهرٍ أو شهرين، ثمّ أغيبُ عنكَ، و إذا ما سألتَ عن سبب غيابي المفاجئ قلتُ:

-الظروف!

و كما تجري العادة كُنتَ لِتسألني:

-من أيّ نوع؟

فأجيب بتلقائية:

-كِتابيّة.

تخاصمُني و تبتعد عنّي بدوركَ متمسكا بظروفك الرجاليّة، تجلس داخل مساحتِك الشخصيّة حاملاً سيجارةَ كانت قد لازمتكَ طيلة الأسبوع، حملتَها داخل جيبك أينما ذهبت، و حملتكَ في أعماقها توسوس لكَ كلّ يوم أنِ التهمني، تقول لا شيء أحسنُ منّي! ترميها بعيدا عنكَ، كنتَ قد اشتريتَها من رفيق سوءٍ، مدمن مخدّرات، لعبته بيع الممنوع و المتاجرة بالأسوء فالأسوء، تطلب منه سيجارة واحدة فيضحكَ ساخرا، يقول أنّك مؤدّب جدّا، لا يروق له كونكَ مُسالم إلى ذاك الحدّ، بعيدٌ عن المشاكل، أولويتُك صحتُك! يعلّق مشجعا بصوتٍ أشبه بصوتِ العجائز.. يقول:

-ريسكي شوي يا صاحبي.. تعيش خطرة وَحدة!

"تعيش خطرة وحدة"

لطالما كانت هذه جملتُنا الجزائريّة الّتي لا نلتفتُ بعد قولِها، نعبر نحو الأخطار بكلّ شجاعة، غير مُكترثين للنتائج، نراهن بكلّ ما نملك في سبيل حياةٍ واحدة، حياةٌ واحدة تأتي بعدها موتٌ وحيدة لا شيء بعدها سوى السراب!

لا بدّ لرجلٍ مثلكَ ألّا يحتاج إلى امرأة، رجلٌ لا يتعب! يتكّئ على حزنه و يمضي نحو الحزن القادم، يواجه الوقت بالنّوم، ينام بشكل متواصل حينما تسمح له الظروف، لا يتفرّغ للأشياء المميّزة بتاتا، لا يهتّم لها حتّى!

أم أنّ هذا ما أظنّه؟

لطالما شعرتُ بالتضايق بينما أرمق عملك المتواصل ذاك، لم تكن غيرة، حاشا أن أغار منكَ بل عليك!

أغارُ من فكرة أن يكون عملك أكثر جمالا منّي، أشدّ فتنة من أحاديثنا، أقلّ ازعاجاً من إلتصاقي بك!

كيف للرّجال أن يقفوا على قدمٍ واحدةٍ بكلّ ذلك الثبات؟ بينما أنا المبتورة اليدين أمام طولِك تُبتَر قدماي هي الأخرى فأسقط حين أراك متقدّما نحوي! تلك الخُطُوات الّتي اشتقتُها حدّ الهوَس.. كيف لكَ ألّا تلاحظ هوَسي! أليس واضحا كَوني واقعة بكَ حدّ النّشوة! ألن تعترف بفهمِك لتلميحاتي أبدا؟ ألن تقع بي حتّى تقتلني ثمّ بعد دهرٍ تكتبَ لي كتابا واصفا لي عن حبّك الّذي لم تُدركه حتّى اغتالني الموت، ثمّ اغتالتكَ الكتابة ذات ليلةٍ فالتصقت بكَ إلى الأبد، اِلتصقت بكَ كما اِلتصقت بي ذات عمرٍ! كما يلتصق النحسُ بطرف الثوب!

عزيزي..

لطالما ظننتُ أنّ رائحة السجائر هي الرّائحة الوحيدة الّتي تملكها الرجولة، اغفر لي ظنّي هذا أوّلا، ثمّ دَعني أعبر بكَ نحو عتَبة منزلي

حيث يقف رجلٌ شامخ الطّول، كبيرُ السنّ، عشيرُ جدّي رحِمَه اللّه، يحمل بين يديه سيجارة واحدة، و في سيّارته عالمًا من علَب السجائر، يدخل منزلنا فيتشبّع الجوّ برائحة الحُزن الرِجاليّ الباذخ! لطالما رمَقني بنظَرات أدخلتني في دوّامة من الشكّ، تقول أمّي أنّه رجلٌ ذا ماضٍ ملوّث بالخطيئة، لا أوافقها الرأي، أبعِد عنها غيمةَ الشكّ بينما أؤكدها لِنفسي، يبتسم لي فأبتسم له! يغمز فأرفع حاجبي، تظنّ أنّك قادر على إغوائي أيّها العجوز! لا أخاف على نفسي إلّا حين تبدأ أمّي في الهمس ليلا عن ماضي الرّجل الشاهق و عن بعض الإشاعاتٍ الحاليّة عنه، عدَا ذلك فإنّني أكثرُ فِطنة من أن يتمّ خداعي من طرف شخصٍ لا يجذبني فيه سِوى ما أستطيع كتابته عنه! و بعضُ القصص الّتي يرويها عن الثورة الجزائريّة، يعرض عليّ جولة في السيّارة، نحوَ إحدى المتاحف، فترمقني أمّي بنظرات تقول:

-إيّاكِ أن توافقي!

أمّي و تعرفُني.. تعرف كَوني محبّة لاستكشاف كبار السنّ، لربّما لا تعرف مصدر هذه الرّغبة الغريبة، و لا إلى أين يمكن أن تصل! لكنّني أنا الفتاة المحشوّة بالخبث أعلم أنّها رغبة لا تُكبَح إن باشرت في التطوّر، أبتسم بدلال، يتمّ التلاعب بصوتي من تلقاء نفسه، أنطق بنبرة تختلف لحدّ ما عن نبَرات لهجتي الأصليّة كما تقول عائلتي.. أقول:

-لربّما يوما ما قد نزور المتحف معاً!

أوجّه رأسي نحو أمّي مع نفس البَسمة الثابتة على قسمات وجهي، و كأنّما أنتقم منها!

لطالما كُنتُ سيّدة نفسي، خارجةً عن دائرة العائلة، يدري الجميع أنّني تلك الفتاة الّتي لا يمكن إيقافها عن فعل الشيء إذا ما قرّرت فعلَه!

ها أنا ذي! أستند إلى وسادةٍ صغيرة، تلك الوسادة الّتي لم تفارقني منذ أن كنتُ رضيعة! تقول أمّي أنّني أحنّ إلى الصّغر، وَحدي أعرف كم تمقت نفسي أيّام الطفولة!

أنام فوق الأرضيّة.. بينما يؤلمني هذا الرأس، تُقابلني رائحة السجائر من كلّ ناحية، أشعر كما لو أنّه سيُغمى عليّ، يمكنني رؤية الضباب يحيط بي من كلّ جهة!

أكره السجائر و أدرك كميّة الفساد الّذي يمكن أن تسبّبَه، أتساءل عن مدى قوّة هذا الرّجل، و عن سرّ تحمّله لهذه السموم! أدرك أخيرا أنّ الهوَس الرجاليّ بالسجائر و قدرة الرجال على تحمّل تأثيره عليهم يمكن أن يكون نقطة بداية لفَسادٍ جديد! فسادٌ شامل.. أخيرا توقفتُ عن حبّ المدّخنين، و أدركتُ أنّني لا يمكن أن أضع ثقتي في يد رجل يدخّن.

قبل أن يسقط كوبُ القهوة

الّليلة ال29 من ديسمبر.. أو يجدر بي القول ليلة الجُنون الخاصّة بالكُتّاب أمثالي، ليلةُ ما قبل آخرِ الشهر من كلّ شهر، ليلةُ ما قبلِ اكتمال ما كان ! ما قبل انتهائِه دون عودة، يحدث هذا كلّ يوم ، كلّ شهرٍ ، و كلّ سنة! يجعلكَ الأمر حائراً متسائلاً:

-كيف له أن ينتهي هكّذا دون عودة!

لا أعلم ما الّذي يصيبني حقّا، أشعر كما لو أنّني أفقد جزءاً من عقلي كلّ يوم، غدوتُ مُدمنةَ قهوة، كوباً وراء كوبٍ، أكتب دون انقطاع، ألتجأ إلى الكتابة في كلّ مرّة تضيق بي الدّنيا فَيستعمر الفراغ خُلدي، أكتب كَمجنونةٍ فاقدة للسيطرة، صدّقني لم يعد الأمر صحيّا، يستمرّ القلق في أكلي، كاد إبريق القهوة أن يحرِقني، انسكبت قطَرات القهوة فوق رُكبَتي، لم تنجح حواسّي في جعليَ أتألّم، وجّهتُ نظَري نحو أخي الّذي لم و لن يفلح سوى في ممارسة اللعب السخيفة أمامي، لكَم صرختُ عليه مهدّدة له بالخنق، كأيّ أخت جزائريّة هدّدتُه بالقتل، لكنّ الفرق بيني و بين الأخريات يكمن في أنّني أعني ما أقول، ضربتُه فحسب، ضرَبات عنيفة كان يمكن له أن يردّها أعنَف لو لم يمرّ أبي..

عدتُ إلى المطبخ بينما يشتعل رأسي غضَبا، أعددتُ إبريقا آخر من القهوة، ثمّ توقفتُ للَحظة أمام المرآة، حرّرتُ شعري ليتفرّق فوق رقَبتي، رمقتُ نفسي بنظَرات اليأس، كأنّما أهمس لنفسي:

-نفسُ الشعور كلّ يوم! لا شيء جديد..

سكبتُ قهوتي، و التجأت إلى ما أبرع فيه كالعادة، الكتابة طيلة الّليل..

شرعتُ في الكتابة، لم تكن الخيارات مواتيةً جدّا، إمّا أن أكتب عنكَ، أو عليكَ، أو لكَ! شعرتُ ذاك اليوم أنّني لن أتحرّر أبدا من قبضة الرجل الجزائريّ الّذي لطالما مارَس السلطة كهواية، يتمنّى أن يحكم كلّ عمارة و كلّ عائلة و كلَّ إنسان بكلّ ما فيه!

و إن لم تكن تلك نيّته، فيؤسفني أن أقول أنّها لطالما كانت طبيعتُه!

لكَم كرِهتُك!

لكَم تمنيتُ لو كان كتِفك هنا بحيثُ أستطيع الاستناد إليه كلّ ما اغتالَني اليأس، كرِهتُك و كِرهي يزداد لك في كلّ مرّة يتعب فيها جسدي فلا تحمله، يؤلمني رأسي فلا أجد يدك فوقَه، أشرب أكوابا و أكوابا من القهوة فلا أسمع صوتَك ينبهني لأضرارها.. لم أعد أشعر أنّني بخير البتّة، اقرأنِي بالمعنى الحرفيّ، لأنّني حرفيّة جدّا.. لم يسبق للأمر أن كان مجرّد أدبٍ بالنّسبة لي، كانت حياتي! غرقتُ داخل أعماقِها بالفعل، تنبهتُ لكونِها أبشع ممّا تبدو، أقسى ممّا سبقَ لها أن كانت!

لطالما غرقتُ داخل النّصوص ذلك لأنّني لا أحسِن السباحة، ثمّ أزلتُ التشويش بقولي:

-مجرّد كذِب فنّي!

أقول لابدّ للكاتب أن يكتب عن تجربة لا يعيشها، تجربة يريد أن يعيشها، أو يخافُها!

لابدّ له! ليس لي.. ليس لي أنا الفتاة الّتي كتَبت حياتَها، عجزت عن السيطرة على أصابعها ذلك لأنّ الكتابة نقمة لا نِعمة؛

يقول غريبٌ:

-لا بدّ لكِ أن تكملي طريق الكتابة، أرى أنّكِ خُلقتِ لتكتبي!

أوافقه الرّأي تماما، أشعر بالفعل كما لو أنها وضيفتي الأولى ، لكن في بُعد آخر من نفسي، أردتُ رؤية ما ستؤول إليه حياتي لو لم أخلَق لأكتب، هل كانت لتكون معيشتي سوداويّة بهذا الشكل باذخةُ الحزن مشوّهة الحسّ.. أحيانا مُنحرفة المنطِق!

فقط لو قرّرتَ يوما أن تمسك يدي بدلاً من كسرِها، أن تنتشلَني من كلّ هذا الخراب، أن تعبر بي إلى عالمِكَ، عالمَك الّذي أفترض أنّه متشبّع بالهدوء و السكينة حتّى الأعماق، صدّقني، أستطيع التضحية بأيّ شيء في سبيل أن تتركَني هذه الفوضى، مستعدةٌ لِفعل أيّ فعلٍ من أجل استعادة تنفسي الطبيعي، و بسمَتي الصادقة، فقط لو كان بإمكانكَ أن تبتعد قليلا عن حقيقة كونكَ رجلاً جدّا، الرجالُ لا يفهمون! لا زلتُ لا أعلم كيف يُقال فيهم عاقلون، أمّا نحن النساءُ فلا شيءَ داخل رؤوسنا سوى العاطِفة! نعم أنا كامرأة لا أرى في نفسي سوى التخمة من العاطفة، لكن أنتَ عاقِل؟ ربّما لستَ عاطفيّا البتّة، لكن اعذرني لا يمكن لعقلِك أن يكون مفيداً جدّا حين لا تفهم ما أرمي إليه في تسعون بالمئة من الأحاديث الّتي نناقشُها.

لطالما بحثتُ عن الأمان، الأمان فقط.. لا تهمّني المجوهرات الثمينة و الأزياء العالميّة، بينما كانت النّساء تتجاذب أطراف الحديث حول أحدث صيحات الموضة، كنتُ أغرق داخل اكتئابي، أبكي دون سبب، أبحث عن دوائي القديم، أشرب دوائي الجديد، أحاول إيقاف آلام رأسي غير الطبيعيّة، أحاول قتل نفسي بطريقة ما.. دون أن أعي أنّني أقتل نفسي، دون أن أعلم بأنّني أزيد من انطوائي على نفسي كلّ يوم!

صدّقني.. أنا أموت!

لطالما كنتُ أموت.

كان يمكن للأمر أن يكون أخفّ عليّ، لو لاحظتَ ما أمرّ به!

كان يمكن لي أن أستريحَ ذات ليلة إلى الأبد، ظننتُ أنّني سأعبرُ نحو مرقدي أخيرا، نسيتُ أنّ الأقدار مُخادعة، أنقذَتنِي من الموت ثمّ جاء يومٌ لتأخذ جدّي.. أخذَته!

لم يظهر الحزن على قسمات وجهي حتّى! يمكنني القول أنّني كِدت ألّا أحضر جنازة جدّي حتّى، ذلك لأنّني لَعينة باردة!

لا أصدّق أنّني لم أبكي حتّى!

ها أنا ذي! أبكي جدّي بعد أسبوعين من موته، متأخرة كعادتي..

يُعتصَر قلبي بطريقة تكاد تُنهيني، بينما لا تسقط الدموع بالغزارة الّتي أريدها.. كما لو أنّني أملك روحَ رجل!

رجلٌ لا يبكي!

انقطعتُ عن الكتابة ليلةَ البارحة، أمّا الآن، بمناسبة كَوني فارغة جدّا..

فلأحدّثك عن يومي كالعادة؛

خمّن ماذا أحتسي،

لابدّ لها أن تكون القهوة، لطالما كانت!

خمّن ماذا فعلتُ بشعري، نعم قصصتُ القليل منه، فقط القليل..

أشعر بالنّدم، لا أعلم ما الّذي دفعني لقصّه بالضبط! شعرتُ أنّ صحتي النفسية قد تتحسن لو غيّرتُ من قصّة شعري، لا أعلم لمَ يتميز منطقُنا كنساءٍ بكلّ هذه السخافة، يُخيّل لنا أنّ تغيير المظهر قد يغيّر من الباطن منّا، بينما يظنّ الرجال أنّ التغيير يبدأ من الداخل، بحيث أنّ الواحد منهم لن يكنّ لكِ المَثل لو لم يكنَّه لكِ منذ البداية!

إذا لمَ التغيير! فَلتغيّري الرجل لا نفسكِ!

الّليلة ال30 من شهر ديسمبر..

و ها أنا ذي! أجلس أمام المدفأة، غيّرتُ من عادتي في تدثير نفسي بالغطاء كالجثث، أجلس كشخص طبيعيّ، حتّى أنّ نظرات أفراد هذه العائلة الموّجهة لي قد غدَت غريبة إلى حدّ ما! بردت قهوتي، لا بأس، لا زلتُ أشربها، لم أجد رأس الخَيط بعد، أقصد موضوعنا، موضوع الّليلة..

أخبرني، أيّ قصّة يجب علينا قصُّها اللّيلة، أيّ تساؤل علينا طرحُه، أيّ سؤال مُخبّأ يجب عليّ انتشاله من خزانة الذكريات و طرحه عليك؟

أيّ سلاحٍ سأضعه على رأسِك لتشعر بالذنب دون أن يكلّفني ذلك عذاب تأنيب الضمير!

هل يجب أن أقول " كيف استطعتَ أن تفعل بي كلّ ما فعلت! "أم يجدر بي أن أقول" ألم تحبَّني يوما! "

السادسة مساءً إلّا دقيقة، لا زلتُ كعادتي أعدّ الدقائق و السّاعات منتظرة وقتَك المناسب، كما لو كان وقتك المناسب هو وقتي! كما لو أنّ غير المناسبٍ لي يصبح مناسبا جدّا حين يتعلّق الأمر بك!

في كلّ دقيقة ماضيةٍ تمضي عليك، يخفق قلبي بقوّة في الجزء الآخر من الكرة الأرضيّة، أتساءل:

-يا تُرى هل سيتأخر الوقت دون أن تأتي؟! مرّة أخرى!

تمرّ الدقيقة تلو الدقيقة، ثمّ الساعة.. تمرّ الساعاتُ تلو الساعاتِ، ثمّ الأيّام!

تتأخر كما لم يحدث من قبل!

و تنطفئ شعلة حبّي لك شرارةً شرارة!

أهزّ كتِفاي بلامبالاة قائلة:

-فليكن! لا يهمّ!

فقط لو أُتيحت لي فرصة أن أكون أنتَ ليوم واحد! كنت لأجلس في الزاوية، منتظرة لقدماك أن تقف، أن تمضي أينما تريد أن تمضي،

منتظرة ليداك أن تنقر فوق الرسائل، أن توّقع الخيانات، و تشاهد المحرّمات! فقط لأكرهَك بشكل مكثّف، كنتُ لأمسك اعتصار قلبي، و أبقى داخلك لأطول مدّة ممكنة، أراني في عينك، وَ أرى مدى سطحيّة الأمر بالنسبة لك! فأكره نفسي.. بحقّك! كفاكَ غموضا، فلتصرخ بما تريده، قل أنّك لا تريدني، فلتخيّب آمالي مرّة واحدة و إلى الأبد، اقتلني اليوم حتّى لا يكون بإمكانك أن تقتلني كلّ يوم، ضع مطالبَك أمامي، قل أنّك لا تريد منّي سوى هذا و هذا، اسخر من مشاعري و ادعس عليها حتّى تتبخر.. من فضلك! افعل ما تريد فعلَه! و دَعنا ننتهي إلى الأبد..

عامٌ جديد يمرّ على هذا العالم، عامٌ جديد لم و لن يجمعنا..
اعتدتُ ألّا أوّدع العام إذا ما ودّعه الجميع، ألا أكتبَ، و لا أُرسلَ بطاقات تهنئة أو رسائل ترحيب بالعام الجديد، أقف في الزاوية و أشاهد الجميع بينما يتهاتفون مرحبين برأسِ السنة الجديدة، غير مستوعبة لمصدر هذه العادة الغريبة..
عزيزي؛
فقط لو كُنتَ هنا لترى كم يبدو الجمع سخيفا، و كم تبدو الاحتفالات متكلّفة غير طبيعيّة!
كانت لِتكفيني قُبلة طائرة منك، تعرف كم أكره الهدايا الملموسة لا لشيء سوى لكونها تعدّ هداياً ذات قيمة نقدية، أرفض إظهار فرحتي بهديّة قد تسببت لشخص ما بخسارة شيء ما في سبيل تقديمها لي، بيَد

أنّ الهديّة ليست إجباريّة، بحقّك! لا تهدِني شيئا لو شعرتَ للحظة واحدة بأنّك مجبور!

تروق لي الهدايا البسيطة، ذات الجهد الشخصيّ، كانت لِتكفيني مكالمة هاتفيّة طويلة وسط كومة من الأشغال الّتي يحملها رجل مشغول على الدوام! كانت لِتكون هدية قيّمة لا يُمكن لها أن تُنسى، ذلك لأنّها لا تحدث كلّ يوم، ذلك لأنّها لا تحدث لأيّ شخص!

ينتظر الجميع اللّيلة الأولى من الشهر الأوّل.. يقولون:

-يفترض باللّيلة الأولى من شهر جانفي أن تكون اللّيلة المنشودة، أيّ ليلَة التغيير، البداية الجديدة، و تلاشي الحزن إلى الأبد!

لا أعلم كيف عساي أن أردّ على هذا، تعلم أن هذا يستفزني جدّا!

ليتَك هنا!

ليتَك هنا بحيث تستطيع أن تقترب منّي فتُطفئ حدّة انتقادي للآخرين، ثمّ تشعل أحاديثنا.. لطالما قلتُ أنّني صامتة غير مهتّمة بالحديث عامّة، لكن صدّقني.. يمكنني أن أتحدّث بدون توقّف حين يتعلقُ الأمر بك! فقط احرص على إثارة رغبة الحديث فيّ.. و سأفعل!

ليتَك هنا تزيل عنّي غبار هذه الأيّام، تواسيني.. تَحِبّني بصِدق، يصيبُك حزني بالحزنِ، لا تغضبُ صارخا عليّ إذا ما غضبتُ منفعلةً، تعرفُ كيف تعيدني إلى صوابي، ليتَك هنا فحسب!

لو كُنتَ هنا كانت الأمور لتنعكسَ إيجابا عليّ، حتى المصائب كانت لتُضحكني، و الأمور العزيزة على قلبي.. كانت لتبتعد خوفا منك! كونها تعلم أنّك الأعزّ! كانت الظروف لِتحاول الوَسوسة لكَ قليلا، كونَها تعلم كم أنّ خطُواتك زلقة حين يتعلّق الأمر بي، تُبعدُك الأشياء عنّي مخافةَ أن تصبح ذاتَ عيدٍ عيدي! أو تغدو رجلَ البيت بالنّسبة لي! يخاف بابُ غرفتي أن يأتي يومٌ فتمسكه يدُك ليلاً ثمّ تمَسَّه ظهري خطأً! تهمس لي النافذة:

-إيّاكِ و الزواج منه!

تتآمر علينا معدّات غرفتي سرّا، تمسكني الستائر ليلا، تحيط بي من كلّ زاوية، تستجوبني بطريقة مخيفة.. تقول أنّ رائحة السجائر تنبعثّ منّي، كِلانا نعلم أنّها كاذبة، رجلٌ مثلك لا يدّخن، امرأة مثلي لا تحبّ المدخنين! أُصاب عادة بالدوّار من الروائح الثقيلة! ما كنتُ لأحِبّ رجلا ثقيلا، و ما كان ليلتصق بي إسمُ رجلٍ يعشق الآفات سرّا، كونَ هذا الإسم يدري أنّني امرأة خائفة تهرب عادة إذا ما ساءت الأمور!

تمرّ مرتكزة على أصابع قدميها، تركب القطار القادم دون أن يؤنبها ضميرُ تركِ الحبيب فوق سرير الاشتياق، إلى تلك الدرجة كنتُ جبانة.. هربت في كلّ علاقاتي السابقة، بضغطة زرّ اختفيت! أخافتني المُطاردات، أدخلت الشكّ إلى رأسي، لم يحدث أن راق لي ذلك الحبّ المبالغ فيه، ربّما هو نفسُه هذا الحبّ الّذي أكنّه، أخشى أنّ الأمر انتقل لي، التصق بي إلى الأبد! لابدّ لأمرٍ كهذا أن يصيب المرء بالخجل،

فما باليَ أشعر بنوعٍ غريب من النّشوة! كما لو أنّ الأمر يروق لي، يعجبني هذا العذاب الفريد من نوعه، لا لشيءٍ سوى لقابليّة تدوينه..

عزيزي؛ اغفر لي رجاءً، اغفر لي كَوني استغلاليّة حتّى فيما يُصيبني من مصائب، حتّى في الألم الّذي تسبّبه لي يداك، اغفر لي كَوني مهووسة بالتدوين إلى هذا الحدّ.. كم

تروق لي السّهرة إذا ما كان موضوعُنا "نحن" أو "أنتَ"

يُسعدني كَوني أستطيع أن أجعل من نفسي قريبةً لك، و لو بالكتابة!

لا شيء يجعلني أشعر بالأمان أكثرُ من الكتابة لكَ أو إليكَ.. أو عنكَ!

يوماً ما.. حين تقرأ هذا، حين تحمل نسخة بين يديك.. نسخة منّي، اعلَم أنّني لطالما قصدتُك دائما..

من فضلكَ، لا تسألني، لا تحيّرني بأسئلتك، تعرف أنّ أجوبتي لن تعجبك، لن يروق لك تهرّبي، و أجوبتي السطحيّة، بيَد أنّني لطالما سطّحتُ الأمور خوفا من أن تنتفض قائلا:

-لكنّنا لسنا كلّ هذا!

لم نكن شيئا، استرخي!

لم أكن لك شيئا، استطعتُ في الأخير أن أتصالح مع هذه الفكرة.. تقبّلتُها!

رُغم أنّني لا أجد داعياً للعيش إن لم تكن هُنا، إلّا أنّني سأستمرُ في المَضي فقط، أعني.. ما الّذي يجدر بي فعلَه غير هذا!

ألن تقول ناصحا :

-اقراي، دوري.. عيشي حياتك!
صدّقني، لا يهمّني كلّ من هذا بقدرِ أن أجدَ مُلهما أعيش من أجله، كم هي بائسة الحياة حين نعيشُها لأنفسنا فقط!

كنتُ قد بدأتُ الكتابة قبل أن ألمَحك بعامٍ، لم أبرع فيها قبل أن تفارقني، بدأتُ أمارس اكتئابي داخل النّصوص، أحاول استعادتَك، أحاول انتشالك من تلك الجملة ثمّ من تلك، أستحضرُك داخل رواية أقرأها، أبكيكَ بعد أن ألمحكَ داخلها، بعد أن ألمحنَا على حين غفلة! أصبتني بمرضِ الخوف من الآتي..
رُغم ذلك، أظنّني سأغفر لك، سأسامحكَ على كلّ دمعة أمطرت بها عيني، لكنّني أبدا لن أُفلح في أن أغفر لنفسي، كَونها قسَت على نفسِها من أجلك! عرّضت نفسها لكلّ تلك الليالي الباردة بينما تنتظرُك! لم تكن غبيّة، لطالما علِمت أنّك لن تأتي، و بالرّغم من ذلك انتظرت! ذلك ذنبُها الأكبر، الإصرار على التألّم، رفضُ التشافي، الابتعاد عن الخيارات الكثيرة و التمسّك بغير المتوّفر.. كان خطأُها لا خطأُك!

أخيرا.. تعلّمتُ أن أحيا كرجل، ألّا أهتّم كثيرا، أن أعلّق اللَحظات دون أن أعيش كلّ لحظة بحذافيرها، ألّا أستمتع بكلّ دقيقة، أن أعيش الضجر بكلّ ضجر، و أرمقَ ما يفوتني دون أن أبالي، أدركتُ أنّ الموتَ مجرّد موتٍ، أنّ الكلمة مجرّد كلمة، الأعياد أيّام مزيّنة فقدت بريقها،

فلاَ أنتَ عيدي و لاَ أنا عيدُك! الحبّ مجرّد شعور، تعلّمتُ ألّا أبالغ في وصف اللّحظات، ألّا أقع في حبّ الأماكن و المُدن و الشخصيات الروائية، فقط أعيشُ لأعيش!

أعملُ لأعمل، أبني مستقبلي لأَعيشَه.. فقط!

لطالما كانت التفاصيل بريقي الخاصّ، علّمني رجلٌ سابقٌ كيف أُهمِلها، فاعتلتني غيمة من الحيرة، كيف أتوقف عن ذكر التفاصيل بينما كنت أدرسها طيلة حياتي! كيف أتوقف عن حبّها أنا الفتاة الواقعةُ فيها حدّ الهوَس.. بالأشياء، بالمُدن، بالجسور، بالنصوص و الكلمات، بالجماد، بالكتب، بكلّ شيء صامتٍ عدَاك!

علّمتَني ألّا أعتبرَك شخصا مميّزا إلى ذلك الحدّ، ألّا أكتب وفائك أنا البعيدةُ الّتي لا تعرف عنك سوى اسمك و بعض الأمور البسيطة، أخذتُ أعمّق الأمور بينما كنتَ تأخذ تعميقي لها و تعيدَ تصغيرها! لم يرق لك كَوني أعدّ الأيّام يوماً يوما، حتّى أستطيع الوقوف أمامك ذات يوم قائلة:

-نعرف بعضنا منذ سنين و سنين!

قلتَ ذات يومٍ أنّنا تحدّثنا مرّة أو مرتين، تغيّرت ملامحي، صُدمت لسماعك تسطّح الأمور إلى هذا الحدّ! سألتُك:

-أحقّا؟ مرّة أو مرتين!

قلتَ مؤكدا:

-نعم!

أعترف.. شعرتُ باستسلام غريب، أنت الفائز كما تجري العادة!
أفترض أحيانا أنّك قد تشعر بالذنب ولو قليلا ، ثم تأتيني اللّحظات الّتي قمتَ باستفزازي فيها لتقول لي على لسانك:
-أنتِ على حقّ! لم أكن مهتّما يوما، و لن يحدث أن أكون.. تكتبين كلّ هذا هباءً!

بكلمتين! يمكنك تدميري بكلمتين، تستطيع جعليَ أتوقف عن الكتابة فقط بجملة كالّتي سبَقت، تستطيع جعليَ أموت!
إذا.. اجعلني أموت اليوم، لو كان ما أفترضه صحيحا، اتّصل بي و قُل:
-أنتِ محقّة!
لكَم يخيفني أن أكون محقّة، المرعبُ في الأمر أنّ ظنّي لا يخيب!

صباحٌ جديد و شعورُ كلَّ يومٍ..
تشير عقارب الساعة إلى ال10:01، كنُت قد تناولت فطوري ثمّ قمتُ بتهريب كوب قهوة من المطبخ، مخافةَ أن تلمحني أمّي حاملةً كوبا ممتلأً من السمّ كما تسمّيه، بدأتُ اليوم بإلقاء نظرة على صفحة الفيسبوك الخاصّة بي، كالعادة لا شيء مميّز، فقط بضع إشعارات سخيفة، رسائل لأناسٍ عاديّين لا يعنيني منهم أو من رسائلهم شيءٌ..

مؤخرا بدأتُ أحظى بنوم متواصل، إلّا أنّ الكوابيس لا تتغيب عن مواعيدها، تأتيني هي الأخرى بشكل متواصل، أحيانا أشعر كما لو أنّني أعيشها بطريقة ما.. استيقظ صباحا، أهمس:

-لابدّ لهذا المنام أن يكون ذكرىً سابقة!

كوابيس مُريعة، أحيانا عنيفة..

لا أعلم ما الخطأ الّذي أرتكبتُه لأستحق كلّ هذا!

في أيّام مضت، كنّا نلتقي فيها داخل حلمي، ككلّ مرّة كنتَ تلوّح لي بيدِك مودّعا.. أو مرحّبا! متوعدا بشيء ما، أو تحذّرني من شيء ما! لم أستطع تحديد ما تعنيه بالضبط..

كلّ ما أعلمه أنّك قد كنتَ تكرّر ذلك المشهد باستمرار متعّمدا، مناماً وراء منام، مرّةً تمرّ على قدميك، و مرّة بالسيّارة.. مرّة يتصادف مرورك مع خروجي من محلّ ما، و مرّة يتصادف مع قراري للخروج إلى التجوّل دون وُجهة، و بدا لي أنّنا نعرف بعضنا البعض لدرجة كبيرة، كما لو أنّك (وليد حومتي) و أنا (بنت حومتك) أنا الفتاة الغريبة عن أبناء منطقتها أجعل من نفسي قريبةً لكَ دون أن أدري!

يمرّ هذا اليوم مستعجِلا، أشعر بقفزاته.. دقيقة وراء الدقيقة، لكَم أخاف أن يمرّ دون أن تأتي، أخاف أن تبرد قهوتي فلا تهمسَ لي قائلا:

-اشربي قهوتَكِ!

أخاف أن نجلسَ ذاتَ حبّ على طاولة نحتسي فوقها القهوة صامتين، يمضي الوقتُ مسرعا كي تدقّ الساعة الثانية عشر لتكسر الصمت بيننا، و أهمسَ لك:

-الوداع!

فتمسك يدي قائلا:

-إلى أين؟

فأجيب:

-بل أنتَ إلى أين؟

تطرح عليّ سؤالا باستعمال ملامح وجهك.. فأُكمل:

-ماذا عسانا نفعل جالسين هنا دون حديث!

أرفع حاجبي ساخرة منكَ قائلة:

-أنحتسي إبريقا آخر من القهوة؟ أظنّك مهووسا إلى حدّ ما سيّدي!

يبتسمُ ثغرُك، ينخفضُ رأسُك بتأدّب، ثمّ أسمع صوتَك يقول:

-لِم لا! أليس الحديث عادة قديمة؟

أتركك راضيةً و أمضي، تتركني راضياً و تجلس!

أقدّم لكَ وعدا بأن أمنحك موعداً آخر، و بدورك لا تسألُ أين و متى، تعلمُ أنّ امرأة مثلي تحبّ المُفاجآت، و رجلٌ مثلك يحبّ القرارات الّتي تسقط على رأسه على حين مُباغتة! نُؤمن كِلانا بأنّ الصُدفة لغة الحبّ، نؤجل حبّنا كما أجّلت سندريلا موعد قُبلَتِها، يتأخّر الوقت

ككلّ مرّة فيتركَ الأقوال و الأفعال مُعلّقة، ينقذ امرأة من الهوس، كَونه يعلم أنّها خُلقت لتحبّ بطريقة لا يملكها بشرٌ غيرُها، ينقذ رجلاً من الغرق، كَونه يعلم أنّه خُلق ليغرق داخل بحارِ النّساء الغامضات الواضحاتِ بصفة غريبة مُخيفةٍ إلى حدّ ما!

أشعرُ بملل لا يُطاق هنا من دونك، فهَلا أتيت؟! فقط تعال، لا تهمّني كثرة الأحاديث، تعال قف أمامي فحسب، اصمت إلى الأبد، اعتبرني غيرُ موجودة و افعل ما تشاء، امضي نحو عملك، و خُذني معك، صدّقني.. سأحرص على أن أكون مُطيعة، خفيفة الظلّ أكادُ لا أُلاحَظ!

كم هي معقّدة الحياة حين لا نجد شخصا نعيشُها من أجله! كثيرون هم من يستيقضون كلّ صباحٍ مستعدين للعمل في حين لا أرى لهم داعياً له! من أجل ماذا تعمل! يقول لي:

-من أجل متطلّبات الحياة الكثيرة..

في حين أنّني لا أجد متطلّبا رئيسيّا مشجّعا بين كلّ المتطلّبات اليوميّة..

لم يعد يهمّني شيء بقدر أن أكون قادرةً على إنهاء يومي دون الحاجة لارتكاب حماقة طلب المساعدة منك! أنتَ الرّجل الّذي يخيّل لي أنّه يعشق منح المساعدات للمساكين أمثالي.. يعزِف عن منحها حين يتعلّق الأمر بي!

كم أنا مِسكينة حين يتعلّق الأمر بك!

الرّابعة إلّا أربعُ دقائق، عدتُ إليكَ بعدما أدركتُ أنّ لا شيء يجعلني سعيدة سوى بقائي قريبة منك قدر المُستطاع، ليس قريبة جدّا.. أدري أنّ البُعد حتميّ! أقصد الكتابة بقربي لك، أن أبقى على قيد الكتابة، أن ابقى على قيدِك!

لا أعلم ما الّذي يفترض بي كتابته اليوم، أشعر كما لو أنّني بالفعل قد اعتصرتُ عقلي كفايةً كي يعاقبني بفقدان الشغف، لذا أفكّر في أنّني قد أحصد بعض الشغف لو غيّرتُ مكاني، لو خرجتُ للتجول أو زرتُ خالتي مثلا!

قرّرتُ زيارة خالتي أخيرا، ليس لدي ما أفعله على أيّة حال، لذا فلنغيّر نوع الهواء الّذي نستنشقه ليومٍ أو يومين ،فلنرى ما قد يحصل لهاته النفسيّة الهشُة بعد تغيير إحداثيّاتها!

سأحرص على تدوين مشاعري شعورا شعوراً في كلّ لحظة، سأُطلِعك حتما على كلّ جديد و قديم، في كلّ الأحوال لا أملك خياراً آخر، أنا الفتاة الّتي لا تحبّذ الإفصاح عن الأسرار، تحبّذ البَوح لك بها!

صدّقني؛ لك فقط!

تسأل نفسك:

-من؟ تُراها تتحدث إليّ!

بالطّبع لا، لطالما تحدّثتُ إلى الجميع بصفة عامّة، لكن حين يتعلّق الأمر بك.. يصبح الأمر خاصّا جدا!

وصلتُ إلى منزل خالتي، لم يحدث شيء مميّز كالعادة، نفس الأجواء العائليّة، أصواتٌ هنا و هناك، يترأسها صوتُ التلفاز الجزائريّ، خالتي المهووسة بقناة الطبخ، و أمّي المهووسة بالنّميمة، أختي صديقةُ المِرآة المُقرّبة، و أخي الّذي لا يكفّ عن طرح الأسئلة السخيفة ، يسألني قائلا:

-عن ماذا تتحدّث روايتُك هذه؟ أهِي خياليّة!

أجيب:

-لا!

يقول:

-إذا حقيقيّة؟

أجيب علامة الإيجاب:

-جدّا!

أجيب عن سؤال اليوم السخيف عالمةً أنّه سيغدو سؤالا كبيرا جدّا ذات يوم، سؤالا مشكّكا مثيلُ تلك الأسئلة الّتي يطرحها الأخ على أخته.. متأكدة من أنّه لن يحصل على نسخة من روايتي هذه، بيَد أنّ النّسخ ستنفذ قبل أن يكبر كفايةً ليقرأ كتاباً كتبتُه أخته!

على مدى عمرٍ خُنتُ حبّ الطفولة، خنتُ القَسم فوقعتُ في حبّ عينان لا يملكهما حبّيَ الأوّل، وصفتُ يدان بعيدتان كلّ البُعد عن يد فتايَ الأوّل! ذلك لأنّ الخيار ليس خياري، ذلك لأنّني أُجبِرتُ، على حين

غرّة فوجئتُ بشخصٍ جديد يستوطنُ قلبي، حينها أدركتُ أنّ الخيانة متغيّرة بفِعل الأسباب، أدركتُ أنّ المرء مُجبَر على الخيانة إذا ما خان! أنّه يُسميها خيانة حتى إن لم تكن، لطالما شعرتُ بالخيانة حين أحادث من لا أحبّ في سبيل أن أنسى.. أو أتناسى من أحبّ! ثمّ فجأة أتاني همس ليقول:

-ماذا لو عرف! ماذا لو لم يكن ذلك ما يريده! ألن تسمّى هذه خيانة؟

أقول للمتحدّث إليّ:

-أشعر بالقرف من نفسي، ذلك لأنّني أحادث شخصا غيرَه!

يستدرك:

-لكنّكما غير متزوّجان!

أقول:

-ربّما معك حق!

لربّما أكبّر المواضيع كعادتي فحسب! ليست خيانة، فكما تعلم، لن تعتبرَها خيانة ذلك لأنّ الأمر لا يهمّك.

تقول:

-افعلي هذا أو هذا..

تشير إلى لباسٍ مهترئ، و تهزّ كتِفيك قائلا:

-نعم.. هذا يفي بالغرض!

لم يعد الأمر مهمّا.. ذلك لأنّ الأمر لا يهمّك!

فقط لو يمكنكَ التنازل قليلا، أن تعاني في سبيلي، أن تقتل نفسك من أجلي، أن تكون الرّجل الّذي لطالما راق لي رُؤيته فيكَ بين السنة و السنة، و لكن.. كلّ يوم!

أَهي صعبةٌ التضحيّة من أجلي إلى هذا الحدّ! ألَا أستحق أن أُعامَل كالمرأة الّتي لطالما حلِمتَ بها! ألستُ مناسبة لأكونَها؟ ألستُ ناجحة كفايةً لألمسَك كونَك شيئا ساميًا! أم أنّني أكبرُ من أن أعتمد عليكَ أنا الإبنةُ الّتي لا تعتمد على أبيها حتّى!

من فضلكَ.. لا تدَع مُحاولاتي تتبخّر بهذه الطريقة، ليس بمقدوركَ تخيّل كم كلّفني الوصول إلى هنا، لذا.. حاول أن تتعامل معي بحذر، لا تكسرني مرّة أخرى، لا أعلم كيف يمكنني أن أُلملم شتات نفسي مرّة بعد.. لذا لا تفعل!

الحُبّ امرأة ، طِفلة .. فتاةٌ و صَبيّة!

كنتَ تجربتي الأولى رغمَ كلّ ما مضى من تجارب، نجحتَ في مسح الماضي لا من عقلي فحسب بل من روحي أيضاً، لكن تناسيتُ كوني لم أكن لكَ تجربةً أولى أو الحبّ الأوّل، لم أكن الحبّ الأخير و لاَ حبّا يُنظَر إليه باشتياقٍ أو ابتسامةٍ غريبةٍ لا تطمح لإعادة الماضي بل تعتزُ بكونِه جزءاً منه على الأقلّ،ليتنِي كنتُ حُبّا من الأساس!

ما أردتُه في كفّة، و ما سأحصل عليه و كنتُ قد أردتُه قبل أن أعثر عليكَ في كفّة أخرى! لا أظنّ أنّك تملك ما قد يغيّر رأيي بعد الآن!
بين كلّ تلك المتغيّرات.. كان حبّي لك هناك، في المنتصف! يزيد و ينقص، يختفي حتّى أنّني قد أظنّ أنّني لم أحبَّك يوما، ثمّ تعود أصواتُك لتُتعب عقلي و قلبي!
أحاول ألّا أكتب لك حبّا ذليلاً، ثمّ تُجبرني الكتابة، أخجل من نفسي، وَ أقاطِعُك علّني أستطيع التركيز على أشياءٍ أخرى فأعيدَ ترميمها داخل نصّ لا يُعالج قضيّة الحبّ، حتّى في غيابي المتعمّد عنكَ لا أرى سوى طيفَك الّذي لا يلبث يصمت دقيقة حتّى أسمعه يغرّد بإحدى الأغنياتِ الّتي لطالما سمِعتُها بينما أحادثُك، بينما أبكي منكَ أو عليك! ثمّ يأتيني الإلهام بشكلٍ عكسيّ، تُجبرني الأنغام على الكتابة عنها و إليها، واصفةً لتفاصيلها.. أشردُ للَحظة، أعيدُ قراءة ما كتبت، فلا أرى سواك! كما لو أنّك تحتّل داخلي سبَقاً، كما لو أنّك تحاول إبادة أفكاري حين تحرص على جعل كلّ الأفكار محصورة بكَ و بموضوعِكَ!

مجبَرة أنا على مواجهة كلّ هذا الملل وَحدي، ليس لي شيءٌ سوى الوِحدة، لم أعد أشعر بكَ هُنا، أخذتَ تتلاشى فورَ شعورِكَ بي، يؤلمني رأسي بشدّة، أحاول كتابة صفحةٍ إضافيّة، ثمّ أخرى و أخرى! أخشى أن أُضيّع هذا اليوم بمراقبة الجدار، بالمناسبة يذكّرني الجدارُ بك!
يا تُرى، هل نملك ذكرًى خاصّةٍ بنا نحن الثلاث! أنا و أنت.. و الجدار!

خمّن، ربّما قد تتذكّر!

حين قام بالسخرية من حديثنا، حين رمقني بنظرة الشك فورَ قولي:

-أكرهك.

حين أخبرتَني أنّك تريد تقبيلي ثمّ حين سألتُكَ:

-أين؟

قلتَ:

-الجدار!

حين كنتُ منغمسة بقراءة روايةٍ جزائريّة، ثمّ أسندتُ رأسي عليه خطأً فقام بضربي بعنف.. ثمّ ذكّرتني هذه الضربة بساديّتكَ غير الظاهرة، ساديّتك الّتي كنتَ قد قرّرتَ إظهارها لي ذات يومٍ بتعمّد، و كأنّك تقول:

-أنا هكّذا و هكّذا.. لذا اتركيني و امضي!

فهمتُك حينها، صدّقني.. فهمتُ كلّ كلمة!

لا أعلم لِما أصرّ على الالتصاق بفكرة حُبّك إلى هذه الدرجة، في حين أنّني أُدرك بين المرَض و المرَض أنّك مجرّد فكرة، لطالما كُنتَ مجرّد شعور يأتيني من أجل أن يتلاشى، يؤسفني أن أقول أنّك لم تكن هنا من أجلي قطّ، لم تعنيك مُعاناتي، بينما كانت آلام الرأس تأكل رأسي، و الأمراضُ تمتصني كلّ شتاء، كنتَ أنتَ تقف هناك، دون أن تُلقي عليّ نظرة، و إذا ما ألقيتَ قلتَ:

-ربي يشفيك..

قُلتَها بكلّ برود، كنتُ أريد أن ألمح الخوف داخل عينيك، أن أرى الحبّ يهمس لي:

-تهلاي في روحك، ما تنسايش تشربي دواك!

كنتُ أريد أن أرى خوفَك من أن تفقدَني بين الكلمة و الكلمة، لكنّك لم تقل شيئا يُذكَر، حتّى أن الغرباء اهتمّوا بصحتّي أكثر ممّا فعلت! لذا تساوت الحياة و الموت في نظري، و لم يعد يهمّني إن كنت سأحيا لأطول مدّة ممكنة، أو سترفعني هشاشة جسدي نحو السماء! بصيغة أخرى لم يعدّ يهمّني كونُك تكنّ لي المشاعر أو لا تريد أن تكنّها من الأساس..

لطالما ربطتُ الأغاني بالأشخاص، لم يكن بالأمر الجدّي قبل أن تغدو الأغنية قاتلةً كِفاية لتُنزل دموعي حين تتبادر أنغامها إلى ذهني، فتسقط دموعي في لحظة ضعف، يأتي صوتي ليساعدني على ابتلاع الغصّة كَوني مُجبرة على ابتلاعها لتجاوزها و الانتهاء منها إلى الأبد..
أستمع إلى صوت ariana grandi حين تقول في أُغنيتها المُحبّبة لي:

!Why'd you have to be so cute

..It's impoosible to ignore you

أبتسِم لكلمات الأغنية قبل إيقاعها، اعتدتُ السماع بعينيّ لا بأُذناي، ماذا عساي أفعل حين أستمع إلى أغنية مجهولة الكلمات؟ هل أحزن

أم أرقصَ على أنغامها بغضّ النظر عن كلماتهاَ! هل أبكي أم أنّها أكثرُ تلّونا من أن تسمح لمُستمع بالبكاء!

أم أنّني سأختار محتوىً أكثر قداسة، صوتاً يخيّل لي أنّه صوت فيروز الإنجليزيّ في بُعد آخر، صوتٌ يحمل لون البياض، ذلك لأنّه لون النّقاء.. و لمَن عساه يكون صوت النّقاء هذا إن لم يكن لِlana del rey.. أحبُّ كلماتِها إليّ حين تقول:

- kiss me hard before you go.. Summertime sadness! I just want you to know that baby you're the best!

لطالما عوّلتُ على اللّقاء، مسترسلةً في الظنّ أنّه قد يزيل سحابة الغمّ الّتي حلّت على رؤوسنا، كنّا قد ارتدينا ملابسنا، ظهرتُ بفستانٍ لم أختر لونَه بعد، و ظهرتَ ببدلةٍ لم أرَها بعد! رششتُ عطري بعشوائيّة متعمّدة أن أجعلكَ مفتونا، و أفترض أنّك وضعتَ عِطرا رِجاليّا يُظهِر نُبلَك الرجاليّ كرائحة، لبِستُ حذائي الّذي حتماً سيأخذني إليكَ، و مسحتَ قسَمات حذائك بحذر الرّجال مخافةً أن ألمحَ بُقعةً أنا المرأة المولّعة بالتفاصيل، حشوتُ معطفي بحبّة حلوى و السمّاعات وَ هاتفي النقّال، ثمّ استخرجتُ الهاتف من جديد مُتسائلةً:

-ما حاجتُنا للهواتف؟

كُنتَ قد جلستَ تحذِف الخِيانات مدركاً لكوني أنا المرأة الّتي تنتبه لكلّ الأشياء كيف لها ألّا تقيم حملة تفتيش لمحلّ تكثرُ فيه الجنايات!

مشيتُ إليكَ مستعدّة لرحلةِ السطو هذه، مُستوعبةً لكون المسروق لا يُسرَق كلّ يوم، و أنّني سأغدو فائزةَ اليوم حتما، ذلك لأنّك بالفعل قد فُزت كلّ يوم بفِعل حوّاس الغياب..

اليومَ.. أواجهُك دونَما حذفٍ لبعضِ المشاهد أو الأقاويل الّتي قد تكشف جزءا مخفيّا منّي، متأكّدةً أنّني و لو خسرتُ فائزة!

مشيتَ إليّ تعدّل سُترتَك تارة و سروالَك تارة أخرى، تضع يدك بين خصُلات شعرك و تُرجعُها إلى جيبها بكلّ توتّر، ذلك التوتّر الّذي يصيبني عادةً لا يِصيبُني اليوم، بهدوءِ النّساء آتيك، أعوّل عليكَ في طرح المواضيع.. تقول:

-إذا ماذا نتحدث؟

أبتسم، أجيبُك:

-ألا تعلم؟

كالمعتاد.. و كما تجري كلّ أحاديثنا، تقول:

-لا، و هل تعلمين أنتِ!

أؤكد لك ما تحاول نفيه في عقلك قائلة:

-أعتمد عليكَ في طرح المواضيع الّتي سنتحدث عنها، فكما تعلم أنا مجرد باردة لا تتقن سوى فنّ البقاء صامتة!

تقول بتلاعب واضح:

-ماذا عن الهمس! ألا تجيدينه!

أجيب:

-أصعب من التكلّم العاديّ.

أرفع حاجبا ثمّ أهمس:

- فلنبقى هكّذا، نناظِر بعضنا إلى الأبد.

تصمت للَحظة.. تبتسم:

-يروق لي هذا!

فوق كرسيّين خشبيّين، في مقهًى جزائريّ أبعدُ ما يكون عن فكرة الحبّ، نجلسُ واضعينِ أيدينا فوق طاولةٍ اعتادت استقبالَ اليائسين أصحاب مُنتصف العمر.. لم نكن في منتصف العمر بعد، كُنتَ تدخل عشرينيّاتِك بشجاعة الرّجال، بحماسِ فتًى يتشوّق ليصبح سيّدَ منزله، بهوس الاجتهاد تعلّقت روحُك، فأخذت ترفعُك شيئا فشيئا، و لكَم راقت لي فكرة أن أشاركك ذاك النّوع من الارتفاع الشّامخ، لم تكن قصص الحبّ تغويكَ، و لا مُحاولاتي الكثيرة لإغوائكَ حتّى، كنتَ تُبقي نفسكَ بعيداً عن كلّ ما يمكن له أن يُلهيك عن الوصول في الوقت المناسب إلى ذلك النجاح النِسبي، لطالما آمنتَ بكون الحياة الهادئة تحتاج إلى نجاحٍ هادئ، لم تُغريك فكرة الألم من أجل الوصول، على عكسي! كنتُ يافعةً جدّا، على عكس أحلامي الّتي لم تكن يافعةً البتّة، أذكر أنّني لم أبلغ العشرونَ حتّى، حتّى أنّ البعضَ تعامل معي بطريقة مُستصغِرة، كما لو أنّني أنتمي لدائرة الأطفال! لا أعلم ما كان شعورك

نحوي بالضبط من هذه الناحية، لكنّني دائما ما كنتُ حسّاسة من هذه النقطة.. كُنّا متقاربان في العُمر، مُتباعدان في التفكير، جمعنا اختلافٌ تجاوز الاختلاف الأنثويّ و الذكوريّ، لم أعتبره عالماً ذا ملامح أُنثويّة، و لم تظنّ أنّ الذكورَ هم من يحكمون العالم، كُنّا مُتحفظّين في آرائنا حول ما يدور في العالم، حول السياسة و الحروب الّتي تغزو عالمنا شيئا فشيئا.. أذكر ذاك اليوم كما لو أنّني أعيشه اليوم، التقينا صباحاً، كنتَ ترتدي قميصاً أبيض، و كنتُ أرتدي فستانا طويلاً بنيّ اللّون على غير عادتي، واضعةً معه خماراً أحمر اللّون غير جاذبٍ للأنظار، قلتَ مُنتبها لكَوني أرتدي ملابس ساترةً اليوم:

-أراكِ ترتدين الكثير من الملابس اليوم!

أجبتُك بعشوائيّة بُغيةَ التخلّص من هذا السؤال الّذي أعلم ما الّذي سيأتي وراءَه:

-ألا أرتديها كلّ يوم!

ابتسمتَ بخبثٍ تخفيه دونما أن تحسن إخفاءه.. ثمّ قُلت:

-تلبسين اليوم شيئا يغطّيكِ حتّى القدمين! بحقّك.. خلّي الشعب يعيش!

تضايقتُ من كلامك، كما تتضايق الامرأة الجزائريّة عادةً، ثمّ أجبتُك بلهجة غاضبة:

-غضّ البصر مكاشو في قاموسكم!

رفعتَ صوتَك بطريقة صبّت الزيت على النّار، فتزايد غضَبي..

وجّهتَ جسَدك نحو المارّة، رفعتَ يديك بطريقة سنِمائيّة كما لو أنّك تقف على المسرح، ثمّ جاءت لهجتُك الجزائريّة لتسقط داخل أضلعي مسبّبة داخلي خليطا من الشعور بالإهانة و الرغبة في البكاء..

قلتَ:

- ولينا ما نفرقوش بين النّور و الظلام!

سألتُك بتِلقائيّة:

-استفزاز ول!

أجبتَ كما لو أنّك تهدّئني:

-لالا.. مزح مزح!

رفعتُ حاجبي طالبةً منك أن تؤكد لي إجابتَك، ذلك لأنّني قد كنتُ بالفعلِ على شفا شعرةٍ من البكاء..

أكّدتَ قائلا:

-واللّهِ مزح.

صحّحتُ لك:

-ثقيل..

بدأتَ فجأة تمدحُ جمالي، تقول أنّ عيناي بريئة سُبحان من خلقَها، تخبرني أنّ الماسكارا تجعل من رموشي مكنسَةٌ أطولُ من المُعتاد، و أنّ سيلانها على وجهي يزيد من جاذبيّتي، يُعطيني مظهر الجميلة الباكية، أو إحدى ممثلات الحياة المأساويّة، لطالما راق لك أن تلمح ضعفي بين الثانية و الثانية، راقت لكَ انهياراتي الجذّابة بين ذراعيك، أحببتَ كَوني

امرأة غامضة و واضحة في آنٍ واحد، قويّة و هشّة حدّ السّيلان، و أحببتُ كونكَ رجلاً صامتا ساخراً بشكلٍ مضبّب، راقت لي فكرة أن تحتفظ بكلّ العناقات، ألّا تعانقني يوميّا كي لا أعتادَ العِناقَ فأملّ منه، تذمّرتُ من جفاءكَ، قلتُ:

-ما بالُك تكنّ لي كلّ هذا الجفاف، أظهِر لي بعضَ اللّين يا رجل!

أجبت دون أن تفكّر، دون أن تضَع عينَك في عَيني، دون أن تلمس يدي كرجلٍ مُرهَف الإحساس، قُلتَ بقساوتَك الّتي لا يتميّز بها رجلٌ غيرُك:

-لن يُعجبَكِ ذلك.

أذكر أنّني أخذتُ إجابتَك تلك على محمل الجدّ، صمتت أفكّر في الاحتمالات الّتي يمكن لإجابتِك أن تعنيها.. ثمّ همَست دون أن أعِي أنّك ستسمعُني:

-لن يُعجبني ذلك حقّا..

رأيتُكَ من طرَف عيني، ترمقُني بنظرة ثابتة، ثمّ رأيتُ عيناكَ تنخفضُ نحو الأسفل كما لو أنّها تقول:

-أرأيتِ! ألم أقل لكِ!

هبّت الريّاح، تطاير فُستاني، أمسكتُه بتلقائيّة، التفتُّ نحوكَ ضاحكةً مسترجعةً مشهداً من مشاهد الزمن الجميل، قلتُ:

-ألا يُذكّركَ هذا بشيءٍ؟

رفعتَ حاجبا:

-يذكّرني بالكثير!

ضربتُ كتِفك بينما يشتعل رأسي غيرةً:

-أيّها الخائن!

نفيتَ أفكاري بينما تتساقط كَذباتُك من حولِنا بوضوح.. كذَبتَ قائلا:

-تعرفينَي! أنا وفيُّك المُخلص الّذي لا تهمّه انحناءاتُ النّساء!

ضحكتُ بينما تصرخ الأصوات داخل رأسي:

-نمشيو في الخطّ و صايي!

قلتَ:

-أبهرينا أيّتها المُبدعة! ماذا تذكّر عقلُكِ؟

أجبتُ بينما تتسارع الكلمات هاربةً من فمي، بينما أضحكُ بحماسة:

-ألا يبدو هذا مشهداً من مشاهد فيلم blonde, حين تطاير فستان marlyin monro فوقف زوجُها الّذي تناديه "أبي" يرمقُ كلّ العارِ الّذي تسبّبه مارلين لنفسها بينما تضحك! بينما تُظهر ابتساماتُها الفاتنة و صوتَها الطفوليّ! بينما لا تُبالي إطلاقا!

سخرتَ منّي فحسب.. علّقت:

-إذا تظنّين أنّكِ مارلين هُنا..!

نفيتُ قولَك:

-بل لا أتشرّف أن أكونَها!

سألتَ:

-لِم؟

أجبت:

-قصّة حياة مارلين مأساويّة جدّا، كما أنّها (تالفة راي) إلى حدّ ما.. ترى أبيها في كلّ الرجال، علاقاتُها مليئة بالهوَس، جسدُها مِلكٌ للجمهور، و صوتُها فتنةٌ للجمع أجمع.. صدّقني حياتُها تصيبني بالاكتئاب!

أذكرُ أنّك أصررتَ على جعلي أشعر بالعار ذاك اليوم، ظللتَ تصرّ على كوني أشبه مارلين، للَحظة.. شعرتُ أنّك تحاول إصابتي بالإحباط، أنّك الفيروس الأكبرُ في حياتي.. قلتَ مصرّا:

-لكنّك تشبهين مارلين في بعض الصفات عزيزتي!

سألتُ باستياء:

-أخبرني بواحدة!

همست:

-لديك تعلّق مرَضيّ بالكِتابة!

ثمّ تطرّقتَ إلى موضوع آخر:

-ماذا عنّي؟ من أشبه!

قلتُ بصوتٍ أشبه إلى الهمس بينما ينطفأ كلّ شيء فيّ، صوتي.. ملامحي و الحماس الّذي بدأتُ به الحديث:

-تشبه أبي..

بينما لم تتحرّك فيّ شعرة، بينما كان مظهري ثابتاً جدّا، التفتَ جسدُك كلّه إليّ متحمسا، كُنتَ تهزّ يدي مصرّا على أن أخبرك المزيد، أن أحدّثك

عن الشبَه بينكَ و بين أبي، لكنّ مظهري غداَ جدَّ باردٍ و غير مُكترثٍ، أذكر صوتَك المرتفع حين قال:

-أبيكِ! ماذا عنه!

بدأت دموعي تتساقط، تغيّرت ملامح وجهي، لم أجبك.. بكيتُ فحسب! وضعتُ يدي فوق عينيّ، و استسلمتُ لرغبتي في البُكاء..

بدأتَ ترمقني بنظرات الاستغراب، ثمّ همست:

-لماذا تبكين؟ هل والدُكِ ميّت!

قلت بينما لا يسعني التوقف عن البكاء:

-لا!

لم تسأل مجدّدا..

مضيتَ و تركتني أغرق بين رائحة عِطرك و غرابَتي غير المبرّرة!

كان حديثُنا غريبا جدّا، كانت تلميحاتُكَ قاسية، بعد أيّامٍ قضيتُها في محاولةِ تفسير نوبة بكاءي مجهولة الأسباب، أدركتُ أنّك السبب، أدركتُ أنّ تلميحاتك قد لامست روحي بالفعل! لا أعلم لمَ تطرّقتُ لموضوع مارلين، كنتُ أعرف أنّ التشابه بين روح مارلين و روحي كثيف جدّا، لكن ما لم أعرفه أنّ روحك تقرأ الأفكار، بحقّك! كيف كنتَ تقرأنِي بتلك البراعة؟ و كيف كانت قراءتُك قاسية إلى تلك الدرجة!

لم أرَك بعد ذلك لمدّة طويلة، مدّة أفترض أنّك تعمّدتَ الاختفاء فيها، علَّه عارُك يُمحى! علّه ضميرُك يُشفى!

علَّها سُخريتُك الّتي تقتلني ببطءٍ.. تَخفّ!

عشرُ أيّامٍ.. قضيتُها على فراشِ الموت، أتلوّى باستسلامٍ غريبٍ! منتظرةٍ للموتِ أن يرفعَ روحي نحو السمّاء، لا قدرة لي على تناول طعامي، لا رغبةَ لي في فتح عَيني، و كأنّما هو نفور غريب من العيشِ، لم يحدث أن طوّقني الموتِ بيديه كما فعل أثناء تلك اللّيالي، لا أجدُ وصفاً للسّائل عن حالي آنذاك سوى:

-عجزتُ عن تحريك يدي حتّى!

عشرُ أيّام، لا يظهرُ منكَ سوى صورة حسابِك الشخصيّة، الّتي اختفت بعد اختفاءِك..

ثمّ في اليوم الحاديَ عشَر، بينما أتصفح برنامج Messenger تصلُني منكَ رسالة، ألمحُ إسمكَ الكامل، فلا أصدّق عيناي، أهمس لنفسي بالإنجليزيّة كما تعوّدت أن أهدّئ نفسيَ بها:

- A joke? Right?

يأتيني همسٌ من طيفِك:

- what a baby!

أُدرك أخيرا أنّها ليست بمَزحة من القدر، و ليست بمزحة من عيناي، أقرأ الرسالة الّتي جاءت على شكلِ:

-مرحبا أيّتها الجميلة، أوّلا و قبل كلّ شيء.. اشتقتُكِ و اشتقتُ لقاءاتنا العفَوية، ثمّ تعرفين كم أكره الحديث على الهاتف و على هذه البرامج

الغبية، لذا أرجو أن تردّي عليّ حالما ترين رسالتي، و أرجو أن نجد وقتا مناسبا لكلينا، ثمّ نلتقي! نلتقي فحسب.. كما اعتدنا!

أبتسمتُ بنصرٍ، أم باستسلامٍ.. لا أدري..
كلّ ما أعلمه، أنّني ما كنتُ لأقاوم رسالةً منكَ..
لذا كتبتُ:
-أيّها الرّجل الّذي جعلَني أبكي قبل 10 أيّام، ثمّ جعلَني أمرض و لا أتشافى حتّى اليوم.. يُسعدني تصفيةُ حسابي باللقاء!
شعرتُ أنّني أمازحه و أمازح نفسي بهذه الرسالة القاسية!
لكنّني في الأخير نقرتُ فوق زرّ الإرسال فحسب.
بعد حوالي خمس دقائق، سمعتُ إشعارا من الهاتف، ألقيتُ نظرة فإذا بردّه يقول باللغة الإنجليزيّة:
-like the war?!
أجيب مؤكدةً:
-exactly!

ليلةٌ أخرى أقضيها بين الكتابة، و الأجواء الّتي تُغري بالبكاء، حالةُ غرفتي الفوضويّة، و غيابُك الّذي اعتدتُه، و حقيقة كَوني أحتاجُك أكثرَ من أيّ شخصٍ هنا، أحتاجُك أكثرَ من عائلتَك حتّى! أحتاجُ كلّ

جزءٍ منكَ، يدَك.. وجهُك، شفاهُكَ، عيناكَ و حُضنُك.. ليتَك تدري كم أنّ حضورَ الأشياء دون حضورِك باهتٌ! ليتكَ تتنازلُ عن كلّ هذا التكابرِ، أن تُمطرني بالغزل دونما تفكيرٍ، تعلَم أنّني لن أستخدمَ الأشياء المميّزة الّتي تقدّمها لي ضدّك، تعلَم أنّني لن أحسِن استخدامها ضدّك حتّى لو أردت! فقط لو تَرفع الستَار عن خفاياك قليلا، صدّقني لن أدّون إحداها، لن أفضحكَ داخل نصّ من نصوصي، يمكنك قتلي بعد أن أراها، أو اقتلني الآن إن أردت، ألن تملّ من قتلي كلّ يومٍ أبداً!

ألم يحدث أن أشفقتَ على حالي!

ألم يحدث لي أن كُنتُ "محبوبتَك" و لو ليومٍ!

ماذا حدثَ لعقليّة حبّ الأشياء الماضيَة؟ تلك الأشياء الّتي كانت شيئا محدّدا بالنسبة لك في وقتٍ مضى، تلك الأشياء الّتي لطالما كانت لها قيمة رمزيّة!

ألم يحدث أن كان لي في قلبِكَ قيمةً رمزيّة؟

كيف لي أن أحيطَ عِلماً بِما يدور داخل عقل أمثالك يا هذا! كيف لي أن أعرف ما أنا بالنسبة إليكَ؟

امرأة مثلي تحلم بالحب المستحيل، لا يمكن أن تُحَبَّ بالطريقة الّتي تريدُها إلا بعد موتها، فهل تريدُ لي الموتَ كي تكنّ لي بعضَ الفتات! ماذا أفعلُ بفُتاتَك حين لا يصبح بإمكاني أن أراه! إلى أين سيوصلُك هذا المظهر المُكابر الشامخ! هل تخطّط النّوم فوق بساطِ قبرك بينما تتوّسدُ حبّي الذَليل! بينما تسمعني أبكيكَ بكلّ ما استطعتُ من حنين

إليكَ فَتفرح لبُكائي! ذلك لأنّك لم يحدث أن أحببتني حبّا نقيّا، بل حبّا تقوده المصالح! حبّا تترأسه الشهوة، من الواضح أنّك لم تراني كإسم يحلم أن يلمع يوما، بل لطالما رأيتني مجرّد امرأة، و المرأة بالنسبة لك تظلّ حاملةً العار حتّى تموت، فيبكيها الجميع ثلاثة أيّام ثمّ ينصرف الجميع إلى بيته لِتعود الحياة إلى نصَابها.. و تظلّ كتبي متداولة، ذلك لأنّ اسمي قد خُلق داخلكَ بموتي، فقرّرتَ أن تُبقيني حيّة ببقاء كتُبي مقروءة!

نِمتُ غير داريةٍ كيف ينام المرء حين لا يريد، أنا الّتي اعتادت أن تَغرق في أفكارِها حتّى تنام، استيقضتُ صباحاً بينما أريدُ لِقاءك من كلّ أعماقي، بعثتُ لك رسالةً فورا:

-لاقِني أينما اعتدنا اللّقاء..

جاءَني ردُّك فورا:

-فورا؟

كتبت:

-فورا.

ارتديتُ بدلة رسميّة سوداء، كما لو أنّني أعاقبَك باللّون الأسود، وضعتُ خماراً أسودَ هو الآخر، و نظارات شفّافة تعمّدتُ أن أكسِرَ بها غلابةَ الأسود على الألوان!

تعمّدتُ أن أتأخر عليكَ، أترككَ لأفكاركَ قليلا، لتُدرك أنّني لستُ بِمشتاقةٍ لك، علّه الوقتُ الّذي تمضيه بانتظاري يقلّل من شأنّك و لو قليلا! يجعلك تشعر كم أنّني سيّدةُ نفسي! و كم أنّك تُهين نفسك بالبقاء جالساً فوق كرسيّ الانتظار تنتظر سيّدة لربّما لن تأتي!

كنتُ سآتي، صدّقني.. لكنّ شيئا همس في أُذني:

-لِم العجَلة! ألستَ مُحتاجا إليّ! ألم تحنّ للأيّام الّتي كُنّا نلتقي فيها دونما موعدٍ! لِما لا يمكنك أن تنتظر أكثر بقليل.. أو بكَثير!

عزيزي، التقينا قبل 12 يوماً فقط! لِم تريد رُؤيتي بهذه السرعة!

فلأمنحكَ وقتاً إظافيّا مع نفسك..

على غير عادتي، لم آتي!

التفتُ عائدة إلى منزلي، اشتريتُ باقةَ وردٍ لنفسي، ثمّ عدتُ إلى البيت..

كنتَ جالساً فوق الطاولة، تهمس لنفسك مهدّئا مستغفرا:

-ستأتي، ستأتي! لابدّ أنّها الزحمة!

نعم صدَقت، لابدّ للزحمة أن تكون السبب!

تلك الزحمةُ داخل قلبِك، ليس بالنساء بل بكلّ شيءٍ عدَاي، اليوم قرّرتُ أن أكون الغائبة، غير المتوّقعة.. قرّرتُ أن أخيّب آمالك على غير عادتي، أن أجعلكَ غاضبا منّي، نزعتُ الثيابَ الّتي كان لابدّ أن أقابلكَ بها، بينما أشعر بالراحة تداعب شعري المتحرّر من قيودِ أصابعك!

بينما أشعر بالارتياح يتسلل على رقَبتي، بينما أحرّر خصلات شعري..

نِمتُ طيلة النّهار بينما لم تصدّق عيناكَ، رمَقتَ الكرسيّ الفارغَ

لساعتين، وقفتَ ثمّ جلست، ثمّ وقفتَ و جلست بينما تكاد تفقد صوابَك.. قُلتَ:

-ستأتي.. ستأتي، كيف لها ألّا تأتي!

استسلمتَ أخيرا، دفعتَ ثمن إبريق القهوة الّذي احتسيتَه وحدكَ، و عدتَ إلى البيت..

وصلتني منكَ رسالة تقول فيها:

-تظنّين أنّك تعذبينني!

كتبتُ دونَ أن أجيب عن سؤالك بيَد أتّ كلانا يعلم أنّني أعذّبك..كتبتُ لك:

-لم أستيقظ!

تعمّدت الكذِب هذه المرّة، أردتُ أن أكون أنتَ ليوم واحد، أن أكون أنا هي الكاذبة و أنتَ الّذي لا تصدّق..

لم تردّ على رسالتي، و لم أشعر بالإهانة، عدتُ إلى نومي، تبادلنا الأدوار ليومٍ واحد، أصحبتُ متأخرة و كاذبة و نائمة طيلة الوقت، و أصبحتَ مُنتظِراً وَ عالمٍ بأنّني أكذب و منزعجٍ من نومي المتواصلَ الباكر!

كم هو أمرٌ شهيّ أن أكون أنتَ!

أمضيتُ بعد إنجازيَ هذا أسبوعاً عظيما شاهقاً، غادرتَ بالي كليّا، لم ألمحكَ في شاشة التلفاز، لم يمرّ طيفُك مسرعا بينما لا أراه بطرفِ عيني، لم تَزرني في المَنام كَعادتِك، كيف لا و أنتَ سيّد الغياب! كيف لا و أنا سيّدة اللّاتوقعات! كيف لا!

زرتُ خالتي من جديد، لم يُصبني الملل الّذي اعتاد أن يصيبَني في كلّ مرّة، أهدَتني صديقتي عِطراً جديدا، عطراً لا يدوم، عطراً يُشبهُك في لادَوامه، حتّى أنّي تعرّفتُ إلى كُتّاب جدد، و عِشتُ قصّة حبّ جديدة، تخيّل! لأوّل مرّة بعدَك ينجح الحبّ في الوصول إليّ، كَونَك قد نجحتَ في تعطيلِه فعلا بدخولك إلى حياتي، ها هُو ذا تأثيرُكَ يتلاشى!

تخيّل أن قصّة أحلامي تتّحقق! حدّثتُك ذات يومٍ عنها، عن أحلامي البسيطة، و عن أمنيتي الّتي تكمن في أن أدخل إلى مكتبة، أعجز عن استخراج كتابٍ ما، فأطلب من مثقّف أحلامي أن يستخرِجه لي، يحمله آتياً لي به، فيسقط الكتاب و أسقط معه، يسقط كلّ شيء من يدينا، حتّى عينينا! تَثبتُ عينُه بعَيني بينما تحاول يدَه لمس الكتاب، ثمّ يهمس:

-سبحان الله! كم أنتِ جميلة!

فأضحك قائلة:

-شُكرا! مِن ذوقِك!

تسقط من فمه التفاتة تقول:

-ذوقي هو أنتِ!

نُلملم شتات ما سقط منّا، نكنِسُ فتاتَ حبّكَ عزيزي و نمضي نحو الحبّ الآتي! ننساكَ كما لو أنّك لم تكن!

تخيّل!

لم تسقط ابتساماتي، لم تنتهي فرحتي، لم يحدث شيء قبل أن ألمح صورتَك.. حينها صِرتُ خائنة!

اتّهمتُ نفسي، قلتُ:

-كيف تسمحين لنفسكِ بفعل هذا و هذا.. كيف تفعلين و هو يعاني!

فكما تعلم أنا لستُ أنتَ، و لن أكون، لا يمكنني السماح لنفسي بأن أمرح و أفرَح بينما أشعر بقلبِك يتألّم! هل فعلا كُنتَ تتألّم أم أنّني كنتُ أتخيّل كعادتي؟

أجب نفسك فقط، ففي الأخير الضميرُ ضميرُك لا ضمِيري!

كتبتُ ردّا على صورتِك تلك، قلتُ:

-هل أنتَ بخير؟

وصلني جوابُك، بارداً أكثر من المعتاد، جارحا بصورة غير طبيعيّة، طبيعيّا بشكل مبالغٍ فيه، لكَم أكره أن تبالغ في تبسيط الأمور!.. قُلتَ:

-لماذا قد لا أكون بخير!

لم أردّ عليك، فكمَا عوّدتني.. الأمر لا يعنيني!

جلستُ أرمق نفسي بنظرات الكره في المرآة، أشرتُ بإصبعٍ نحو انعكاسي قائلة:

-أنتِ مُصيبة!

بعد دقائق معدودة، رنّ هاتفي.. كان اتّصالُك!

خفق قلبي، أغمضتُ عيناي ثمّ فتحتهما بلا تصديق، هل كُنتَ تحاول الاتّصال بي في الدقائق الّتي كنتُ أوّجه فيها أصابع الاتّهام نحو نفسي!

نعم أظنّ ذلك! يحدث ذلك كثيرا حين يكون الطرفان أنا و أنتَ!

أمسكتُ الهاتف، أجبت:

-ألو..

لم أسمع سوى الصّمت.. سقطت منّي ضِحكة خفيفة، أعدتُ بصوت أكثرُ ارتفاعا:

-ألو!

جاءَ صوتُك ليُغرقَني أخيرا، آهٍ لَكَم احتجتُ لنوبةِ غرقٍ هذه اللّيلة، قلتَ بصوتٍ أشبه بالهَمس، كما لو أنّك نائم:

-معكِ السيّد البارد كما تسمّينه، رُغم أنّك تعلمين أنّ لا باردَ هُنا سواكِ!

علّقتُ مازحة:

-يا لتركيب الكلمات! تصفيقة حارّة للسيّد البارد..

و قُلتَ بدورك كردّ على مزحِي:

-يا للفُكاهة!

قلتُ :

-لا فُكاهة هنا سواك!

و أذكر صوتَك حين قُلت:

- وَ لا حبَّ هُنا سواكِ!

وقعتُ في حُبّك تلك الّليلة من جديد، لم نتحدث عن عدم حضوري إلى المقهى بعد ذلك، نسينا.. أو تناسينا!

قرّرنا عيشَ اليوم و نسيان الماضي، قرّرنا التمتّع باللّحظة مخافةَ أن تفوتَنا.. أو نفوّتُها عمداً بعد أن نتحدّث عن الموضوع الّذي سيُفسد علينا فرحة إعادة شملنا حتما، حتما ستفوتُ اللّحظة من تلقاء نفسها، كما اعتادت أن تفعل، تُغافلُنا ثمّ تهرب!

أخبرتني عن مدى اشتياقِك لي، و أفصحتُ لك عن المَثل، قلتُ فلنلتقي، و وافقتَ قائلا:

-تعالي هاته المرّة!

قلتُ نادمة:

-سآتي!

أغلقنا الهاتف، و نِمنا.. فكما تعلم، لا شيء بعد مغادرة العشق يهمّ، لا شيء سوى النّوم! يسرقُنا من اكتئابنا، يسرقُنا من غدرِ الحبّ بنا، ننام فننسى لا نتناسى! يجبرنا على النسيان، يجبرنا على الموت لساعات، يستسلم له من لم يستسلم يوماً.. ينام.. ينام فحسبُ!

لكَ قصّتُك الخاصّة مع النّوم، تلك القصّة الّتي لطالما غِرتُ منها، نومٌ مُنتظمٌ لا يُفسده شيءٌ سِواي!

تعمّدتُ إيقاظَك بينما كُنتَ في منتصف حُلمِك بمستقبلٍ مُشرق و زوجة جميلة، ذكّرتُك بي على حين غَفلة، همستُ لك داخل منامك قائلة:

-لكن.. لا تنساني!

اتّسع بؤبؤ عيناك، ثمّ ضاق.. همستَ لنفسك:

-و هل أملك فرصة لأنساكِ! هل ستسمحين لي!

فجأة، صرتُ خلفك، همستُ لك بدوري:

-لن أسمَح.. كيف لا و أنا "نُورَك و هُدايتُك"!

استيقضتَ فزعاً من حقيقة أنّني لن أدَعك لنفسك يوما، لا شيء يخيفك أكثر من أجعلك غارقا في دوّامتي لمدّة قد تطول، لا علمَ لي بالقلوب، لكن أيقن أنّ غموضي يخيفُك، تخشى أن تغرق ذات ليلة داخل متاهاتي، تعلَق داخل سؤال! تخشى أن يغتالَك تلميحاً من تلميحاتي، أو يسقط فوقَ رأسِك اتّهام!

لكَم تَروق لي الكتابة لكَ أو عنكَ أيّها الرجل الّذي لا يُشبه ما أكتبه عنه، ذلك لأنّ مخيّلتي واسعة، و الواقعُ ضيّق مُخادع غير مُسالم، يهاجمُ أكثرَ منكَ، تخيّل!

ليلةٌ سعيدة أيّها الأمير النّائم، السيّدة الّتي لا تنام تهمسُ لكَ" ليلةً سعيدة! "

تخيّل!

صباحُ الخير، السّاعة تُشير إلى ال3:14، اعذرني.. مساءُ الخير!

شيءٌ ما في هذا المساء يُذكّرني بذكرىً لنا، ذكرى اللّقاء اللّيليّ الأوّل، لكَم أعجِبتُ بفكرة رُؤيتَك ليلاً، كانت فكرة غيرُ اعتياديّة، و جدُّ مميّزة، و كما تعلم مليئة بالأجواء الرومانسيّة!

أمسكتَ حجَراً صغيرا، و قمتَ برميِه إلى نافذة غُرفتي، هلعتُ بينما أراك تقفُ في الخارج، خِفتُ أن يلمحكَ أبي على حين غفلةٍ فيقتَلك، أرجو ألّا ترى أبدا كم يصبح أبي غاضباً في مواقف كهذه، صدّقني، اتلو شهادتَك لو اصطدمت بغضبه!

ارتديتُ معطفاً خفيفا فوق فستانٍ بيتيّ بسيط، عدّلتُ من مَظهري، بدَت بشرتي باهتة و مُصفرّة، أخشى أنّ فقرَ الدّم يأكلني ببطء فعلاً، وضعتُ أحمرَ شفاهٍ فوق شِفاهي المتشقّقة بفِعل برودة الجوّ، خرجتُ عِندَك غير مُكترثة لكَون المَرض يجعلني أبدو بنصفِ جمالي، غيرَ مُكترثةٍ تماماً صدّقني! لطالما أفصحتُ لكَ عن عدم اهتمامي بجمالي، أهتمّ بمظهري و أشتري له كلّ المستلزمات النّسائية نعم، لكن.. لا أعتبر الجمال معياراً أساسيّا، لا أعتبره شيئا مهمّا بقدرِ مكانتي في قلب الفردِ أو المُجتمع!

رأيتُكَ أخيرا! تقفُ وَقفتَك تلك! لكَم تروق لي تلك القامّة! ذلك الشموخ و الاستحياءُ الرجاليّ في عَينيك! في كلّ مرّة أقف فيها أمامَك بتلك الطريقة، أسمع الأصوات من حولي تطلب منّي أن أقول على لِسانها:

-تزوّجني!

أو شيئا مثلَ:

-اطلب منّي الزواج يا هذا! ماذا تنتظر؟ ألا يُفترض بكَ أن تركع أمامي الآن جاثياً على رُكبِتك بينما تحمل في يدِكَ خاتما و أمثّل بدَوري أنّني مُتفاجأة؟!

لم أقل شيئا، انتظرتُك لتقول، لم تكن هنا لتطلب منّي الزواج، جئتَ لتراني، ككلّ مرّة.. تراني!

قُلتُ:

-إذا ما سببُ مجيئكَ حتّى منزِلي!

أجبتَ:

-تواحشتك!

قلتُ بينما أُضيّق عيناي:

-تقصد.. "نحبّك" أليس كذلك؟

نفيتَ قائلا:

-No!

لم أشعر بالإهانة، لِم قد أشعر بها!

سألتُ:

-إذا ماذا!

ابتسمتَ بينما تصحّح:

-No ما نحبكش mais je j'aime!

سألتُك مضيّقة عيناي مرّة أخرى:

-so.. You love me?

رَفعتَ صوتَك قليلا ثمّ نفيتَ:

-No!

قلتُ:

-so you do not تحبّني!

ضحكتَ من خليطِ الّلغات هذا، قلتَ:

- يا للثقافة الغريبة!

و ضحكتُ بدَوريَ من حديثنا الشهيّ هذا، أعدنا الّلغات لأهلِها، و مشينا متجوّلين في ثنايا ولايةٍ من ولايات الجزائر، حيث الدّفء ليلاً أو نهارا و إن كانُ البردُ في كلّ أنحاء العالمِ..

كُنّا جزائريّان جدّا، كان قلبانا باردان بعيدان عن حرارة بلادنا، لذا حكمنا على أنفسنا بالموتِ المُؤبد، نموت في كلّ مرّة نلتقي فيها، نموت موتاً شهيّا، دون أن ندريَ حتّى!

كُنتَ جزائريّا جدّا في ذوقِك الغنائيّ، تسمعُ الرّاي الجزائريّ، لكَم كرِهتُ الرّاي ا بعيداً عن حبّي للشّاب خالد و حَسني، و بَدوري كُنتُ بعيدة عن الأنغام الجزائريّة المبالغِ فيها، سمعتُ الأغاني الإنجليزيّة، و تعلّقتُ بها حدّ الهوَس..

التقينا ذات صباحٍ، جلستُ أُسند كتِفي بكَتفِك شبهُ نائمة! بينما أضعُ السمّاعات في أذنيّ، لطالما بدأتُ يومي بسماع الأغاني الهادئة جدّا، أغاني تكادُ لا تُسمَع من خفّة إيقاعِها، أغاني أغارُ عليها إن سمعها غيري، ذلك لأنّها تُعَدّ لي وَحدي!

قلتَ:

-ماذا تسمعين؟

قلتُ:

-ألا يقولون "صباحُ الخير"؟ متى تغيَّرت!

ضحكتَ بينما لم أكن مستيقضة حتّى..

قلتَ:

-صباح الخير.. ماذا تسمعين؟

ببساطة قلتُ:

-أغنية!

قلتَ نافذَ الصّبرِ:

-لم أكن أعلم.. حَسبتُكِ تستمعين إلى أصوات العصافير الصبّاحية!

أضحكتني أخيرا.. فلتكتبه إنجازا في دفتر يوميّاتِك لهذا العام!

قلتَ نافذَ الصّبر مرّتين:

-أجيبي!

أجبتُك أخيراً:

-أستمع إلى lana del rey..

قُلتَ متسائلا:

-من هي؟

أعطيتُكَ السماعات لتسمع القدَاسة الّتي أسمعها بأُذنيك، منتظرة منك أن تعلّق بشيءٍ مثلَ:

-يا للرّوعة! لم أجد الكلمات لوصفها!

لكنّك علّقتَ قائلا:

-تستمعين لهذا النّوع من اللّاشيء!

لاشيء؟ هل كُنتَ تمزح؟!

أجبتُك:

-لا تشيّء أشيائي يا هذا!

ضحكت:

-تبدو أغنية لكِبار السنّ!

ضحكتُ من قولِك ذاك.. كنتُ أستمع إلى أغنية chemtrails over the country club حينها التصقت تلك التسمية بأغنيتي المسكينة من تلقاء نفسها أو ربّما أنا من فضّلتُ إلصاقها بها!

سمَّيتَني ذاتَ ذوقِ العجائز، و لم أكترث لذلك!

قلتُ:

-تقول أنّ ذوقي غريب ماذا إن قلتُ لكَ أنّني أحبّ فيروز و أستمع لأغنية " أنساك" لأمّ كلثوم كما أنّني أستمع إلى ماجدة الرّومي و لَكم تروق لي أغنيتُها "مع الجريدة".. أتمسّك بأغانيَ قديمةٍ كثيرة.. عادتي الغريبة هي التمسك بما يبتعدُ عنه الجميع!

سقط منك اتّهامٌ، قلتَ:

-مِثلي؟

نفَيتُ:

-لا! أجدُك محبوبا جدّا.. أحيانا أكره هذا، و أحيانا أحبّه!

ابتسمتَ لي.. ابتسمتُ لك.

تأخّر الوقت، عدتُ إلى المنزل، و عُدت بدورك إلى منزلك، أغلقنا أبواب الحبّ و أخذنا استراحة من الحُلم.. نِمنا لننهض صباحاً فنعيد الكرّة.. نحِبَّ و نحِبّ حتّى نسأم فبذلك نموتُ قبل أن نموت.

سألتنِي مرّة عن الشّعر أيضا، قلتَ:

-أتحبين سماع الشّعر؟

أجبتُك:

-غالباً لا أحبّ أن أسمَع من الشعر سوى لشّعراء قِلّة مثل محمود درويش و نِزار قَبَاني و ما إلى ذلك.. و أكره إلقاء بعض الشّعراء بشدّة!

قلتَ:

-شُعراء مثلَ من؟

أجبت:

-أفضّل ألّا أُفصِح عن أسماءِهم كي لا أُسيءَ بذلك لشِعرهم كونَه الشّعرُ بريءٌ من إلقاء و صوتِ صاحبِه!

سألتَني:

-تحبّين الشّعرَ أمِ السّرد؟

أجبتُ بتلقائية:

-السّرد طبعا!

سألتني عن سبب حبّي للسّرد و تفضيلي إيّاه على حِساب الشّعر.. أخبرتُك عن بداياتي في الشّعر، عن علاقتي السيّئة و السّطحية به، كَونَه بدايتي، و بدايةُ الكاتب أو الشّاعر مكروهة بشكلٍ من الأشكال، باردة متجمّدة بطريقةٍ ما، متمرّدة قليلا! أحيانا أذكّر نفسي بهوَسي الماضيَ به، أستمع إلى محمود درويش لساعات.. المرّة الأخيرة الّتي سمعتُ فيها شيئا من الشّعر دون أن يوقفني شيءٌ عن الاستمتاع بكلّ كلمة كانت خارج الثانويّة.. كنتُ واقفةً مع صديقاتي أضع لهم قصيدة "الجميلات"

يقول محمود درويش:

-الجميلات هنَّ الجميلاتُ

نقش الكمنجات في الخاصرة

الجميلات هنَّ الضعيفاتُ

عرشٌ طفيفٌ بلا ذاكرة

الجميلات هنَّ القوياتُ

يأسٌ يضيء ولا يحترق

الجميلات هنَّ الأميراتُ

ربَّاتُ وحيٍ قَلق

الجميلات هنَّ القريباتُ

جاراتُ قوس قزح

الجميلات هنَّ البعيداتُ

مثل أغاني الفرح

الجميلات هنَّ الفقيراتُ

مثل الوصيفات في حضرة الملكة

يصل إلى القول المُستفزّ لصديقتي القصيرة:

-الجميلاتُ هُنّ القصيرات!

فأوّجه نظَراتي نحوَها، أجدُها غيرُ مكترثة، ذلك لأنّها أبردُ من عرفت، أكثرهم لااكتراثا!

كانت أيّاماً مميّزة تلك الّتي انقضَت دون أن نستمتعَ بها كليّا، جعلنا التذمّر يُفسد علينا اللّحظة، دقّ الجرَس، فتذكّرتُ أستاذة الإيطالية،

كَونها ستُصبِح علينا بوجهٍ أسودَ واضعةً هدف يومِها الأوّل جعل صباحنا صباحاً أسود كصباحِها ، ثمّ الابتسامَ للفتى المجتهد الجالسَ في أوّل الصفّ طبعا!

كانت أيّاماً خفيفة كونَها انقضَت سريعاً و ثقيلة من حيث الضغط الموّزع علينا من جميع الأساتذة! لم يكن الوقت لصالِحنا، ثمّ في أيّام أخرى غدَا بطيئا جدّا، ذلك لأنّنا نحتاج مرورَه، أمّا عنه فيُريد اللّعب معَنا!

أستمرُ في الكتابة، أستمرّ و أستمرّ دون أن أتطرّق لِلقائنا، هل إلتقينا؟ هل سنلتقي؟ هل إلتقينا فِعلا أم أنّني فقط أبرعُ في كتابة ما أرغب به! ليس هذا موضوعُنا ففي الأخير الكذبُ ليس جريمة، ليس بعد! و إن كان جريمة فبالتأكيد جريمةٌ غير معترَف بها!

لن يِقاضيني أحد بتهمة نشرِ الأكاذيب عن حياتي..

هل ستُقاضيني لأنّني أنشر عن حياتِك الأكاذيب؟

حياتُنا!

استيقضتُ ذاك النّهار بينما يبتسمُ ثَغري غير مُصدّق أنّ يومَه سيغدو مميّزا جدّا ذلك لأنّ رؤيتَك تضفِي على أيّامي بريقا فَريدا من نَوعه، ارتديتُ سروالاً عَريضا كعادَتي، و قميصا أبيضَ واسع، وضعتُ عِطرا جديدا اِفترضتُ أنّه قد يُعجبُك، لابدّ له أن يُعجبَك، ألستُ سيّدة الذَوق!

في تلك الثّواني كُنتُ أتخيّلُك تختار من قُمصانك ما هو مميّز، افترضتُ أنّك قد تشتّت خيالي قليلا، قلتُ لك ذات يوم:

-أتخيّل كلّ شيء و في كلّ وقت! المخيّلة هي لُعبتي الخاصّة..

علّقتَ على كلامي قائلا:

-أظنّ أنّني بارعٌ في تشتيتِ مخيّلتَكِ!

ابتسمتُ من صحّة التعلّيق، ثمّ همستُ لك:

-كثيرا!

استبعدتُ خيارَ القُمصان اليوميّة، افترضتُ أنّك قد تَلبُس بذلَتك السوداءَ و البيضاء الّتي أحبّها، ذلك ربّما لأنّني أحبُّها!

ثمّ استبعدتُها أيضا، كونَها قريبةٌ جدّا من توقعاتي، ربّما قد تأتيني بلِباسٍ جديد، صدّقني لا يهمّني لباسُك، كلّ ما يهمّني هو أنت!

هل تذكر حديثَنا عن الألوان أيضا؟

سألتَني عن لَوني المفضّل، أخبرتُك أنّ البنيَّ غالبا لَون مُقرّب لي! أخبرتُك عن كِرهي الشّديد للألوان الفوضويّة المُشعّة..

انتقدتَني قائلا:

-إذا لماذا تلبَسينها؟

أجبتُك:

-لأنّها في كلّ مكان!

قلتَ:

-و هل هذا سبب كافٍ؟ ألا تكفيكِ الألبسةُ البنيّة و الترابية في هذا العالم!

جاءَك ردّي على شكلِ:

-لا أعلم، ربّما يتطلّب الموضوع وقتاً للتّفكير!

ما زلتُ أفكّر، لماذا قد ألبس ما لا يروق لي! ربّما لنِفس السبب الّذي يجعل المرء يحتفظ بأناسٍ يكرههم رغم كِرهه لهم!

وصلتُ عندكَ، رأيتُ كُتلة بيضاء و سَوداء تتحرّك! يا للغرابة! هل ارتديتَ بذلتي السّوداء المفضّلة حقّا أم أنّ عينايَ مريضة!

صِرتُ على بُعد خطوة منك، الآن أستطيع رُؤيتَك بوضوح، لا زلتُ أرى السواد و البياض، سألتُك:

-ماذا ترتدي؟

أجبتني بِسؤال:

-ألا ترَين؟

قلتُ:

-أرى لكن لا أفهم!

ضحكتَ قائلا:

-معليش.. نفهمّك!

قلت:

-حسبتك تلبس حاجة بعيدة على واش توقعت!

همستَ بينما تضيّق عيناك ضاحكاً:

-إذا تظنّين أنّني.. لا أبدو وَسيما؟

صحّحتُ لك:

-آهٍ من وسامتِك! هل تخطّط لقَتلي؟

قلت:

-قوليها بالفرنسية لتبدو أكثر رومانسيّة!

همستُ لك:

-oh mon dieu!

ضحكتَ منّي أو عليّ.. لم يهمّني شيء!

ثمّ طلبتَ منّي أن أحوّلها إلى الإنجليزيّة..

صرختُ صرخة خفيفة قائلة:

-لغتي المفضلة!

قُلت مؤكّدا:

-لُغتُكِ! أبهريني!

همستُ من جديد:

-oh my godness!

كالعادة يكونُ حديثُنا شهيّا حين تتدّخل الُلغات، نلعبُ بها لَعِبا، كم كُنّا مختَلِفين عن الآخرين! لم نكن في علاقة حتّى! لم يحدث أن أطلقنا

تسميّة على علاقتنَا، قمنا بتسطيحها ثمّ تعميقَها حسب الظروف..
كانت علاقتُنا سامّة من جهة، و صحيّة جدّا من جهةٍ أخرى!
و لَكَم يَروق لي هذا الخليط!
كنتُ أجلس قُبالتَك، أمسك هاتفي أدخل برنامجاً ثمّ آخر، أكتب بعشوائيّة فوق لوحة المفاتيح بينما أشعر بعيناكَ ترمقني بنظراتٍ لا أفهمُها ، أستمرُ في التظاهر كما لو أنّني لم ألاحظها، أستمرّ في توّتري، بينما يليقُ بك ارتياحُك جدّا.. أمسكتَ هاتفَك بكلّ ارتياح، تلمسُ الشّاشة بكلّ صلابة! بينما تليقِ بي هشاشَتي أمامَك، و أظنّك تحبّها كَونَها تجعلُك عِملاقا أمامَها!
لم نكن نفعل شيئا باللّقاء سوى الصّمت، شُربُ القهوة، إيجادُ حلولٍ لمشاكل العالم، و تركِ مشاكلنا معلّقة!
سألتَني أن نذهب نحو أقرب مقهى و قلتُ أنّني أفضّل الذهاب نحو مقهًى أبعدَ بقليل لكن أفضلُ بكثير!
سألتَني عن المميّز فيه، و لم أقل شيئا.. قلتُ:
-مفاجأة!
قلتَ:
-فلنَدعها مفاجأة.. إذا من اليمين أو اليسار؟
أجبتُ:
-اتبَعني..

مشيتُ مبتعدةً عنك بقليل، بينما كانت يدي تتدلّى وراءي، جعلتُ يداي مقيّدتان من ورائي، فاستشعرتُ يدكَ فوق إحدَاهُما!

كانت صَدمة بالنّسبة لي! لمَستَ يدي لأوّل مرّة، هل كان إنجازا أم خُسرانا؟! لم أكن أدري، و لا زلتُ لا أدري، التفتُّ متفاجأة بينما أنظر نحو يدانا المُتشابكتان، همستَ لي مُتسائلا:

-ما بكِ!

احمرّ وجهي، بحثتُ عن الإجابات الّتي قد تُبعدُ عنّي الشبُهات عبَثا، و لم أجد!

اعتمدتُ على حُجّة المَرض، أخبرتُك أنّني مريضة اليومَ قليلا، لذا لابدّ لوَجهي أن يحمرّ بين الفينة و الأخرى، ذلك من الحمّى لا غير.. لمحتُ بسمَتَك على حين غَفلة، بسمتُك الخبيثة تلك! سمعتُك تحدّث نفسك:

-نعم نعم.. حُمّى!

تظاهرتُ كما لو أنّني لم أسمع شيئا، و آهٍ من تظاهري! كم أبرعُ فيه!

مشينا و مشينا بينما لا تتركُ يدُك يدي، وصَلنا أخيرا..

دخلنا و إذ برائحة الكُتب تسيطر عليّ فتُنسيني يدَك، كانت الكُتب أكثرُ تأثيرا عليّ منكَ!

قلتَ:

-إذا.. كُتب! هذه هي المفاجأة..

قلتُ بحماسٍ:

-نعم.. أليس رائعا!

قلتَ مُتململاً:

-أليس مملّا أن أُشاهدَكِ تقرأين كتابا بينما أحتسي فنجان قهوة؟!

أجبتُ:

-من قال أنّك هنا لتشاهدنِي أقرأ.. أنتَ هُنا لتقرأ!

قلتَ:

-كيما تحبّي ول؟

أكّدتُ كلامي:

-مش طلب.. أمر!

جعلتُك تجلِسُ، غصباً عنك! ثم تحمل الكتاب فتقرأهُ غصباً عنك!

فتستمتعَ به.. ذلك دورُك و شأنُك وحدَك!

كان شعوراً مميّزا أن أحتسي معكَ القهوة كلّما التقينا ثمّ نقرأ ما تيّسر لنا من الكتب، جعلتُ رجلا وقعتُ في حبّه يلمس أشياءً أنا واقعةٌ في حبّها منذ وُلدت.

لم يكن الأمر كما لو أنّك لا تحبّ الكتب، كنتَ مثقّفا جدّا، في الواقع.. لم تكن بحاجةٍ إلى الكُتب لتثقّف نفسَك، لِهذا السبب وقعتُ في حبّك، كنت شيئا سامياً، شيئا إن ذُكِر تعالت أصواتُ الجمع:

-ما شاء اللّه.. ما شاء اللّه!

لطالما قلتُ أنّني لم و لن أحبّ جاهلاً، وَ لم يحدث أن فَعلت.

يومُ الأحد.. يومُ النّحس خاصّتي، توّقفتُ عن الذهاب إلى الثانويّة لحضور الدروس بحجّة أنّ الأساتذة لا يدرّسون مثل زمان أمّهاتنا قائلةٍ لأمّي:

-من يحضر الدّروس اليوم بينما لدينا برنامج اليوتيوب و ڤوڤل!

وَحدي أعلم أنّني مجرد هاربة من التجمّعات!

يومُ الأحد.. مساءً؛

عدتُ من عملِ المراهقين و المُراهقات مُنهَكة، ظهري أقلّ ما يقالُ عنه يكادُ ينقسم، لا أحبّذ الكتابة بمزاجٍ كمزاجي الحالي.. لذا؛ نلتقي عمّا قريب، حين تطيب لي الكتابة.

ملاحظة: محظوظٌ أنتَ يا من تقرأ، ليتَك تعلم ما اضطررتُ لتجربته و مواجهته لكتابة هذا، ثمّ هناكَ الأمواج الّتي تضربُني بين صفحة و صفحة لأتوّقف دهراً ثمّ أعودَ و تقرأ أنتَ كما لو أنّني لم أتوقف! يا لَهُ من ظُلم!

عزيزي؛

هل نِمتَ أم لا زلتَ تقتل الوقت بينما لا أتواجدِ بجانبك؟ لا زال الوقتُ مبّكرا، لكن أفترض أنّك ستنام بعد دقيقة أو دقيقتين ذلك لأنّك ربّما لا تملك شيئا لفِعله أو شخصا لمُحادثته، أو ربّما تملِك!

شخصاً غيري! ليتَك تعلم أثر ذلك على نفسي، دمِّرني.. دمِّرني و قُلها! حطّمني بمجرّد قولِك:

-في حياتي امرأة أخرى!

أشرتَ إلى ذلك ذاتَ مئةِ تَلميح، و استخرجتُ لكَ الأعذار من حيثُ لا تُستَخرج، لكَم كنتَ تؤذيني وَ أقول ربّما لا يقصدها، ربّما فهمتُ الأمر بشكلٍ خاطئ، ربّما لا يستحقُ الأمر أن أشعر بالإهانة، أو الرّغبة في قتل نفسي، بيَد أنّها الطريقة الوحيدة لتَعلم كم أنّ الأمر يجعلني أموت!

أُناديكَ بعزيزي، بينما أشعر أنّ هذا لا يشرّفك، يمكنني رؤية تقلَّب عيناكَ!

يمكنني رُؤية التلاشي يُحيط بي من كلّ جهة، و لا زلتُ أقول سيأتي يومٌ تحتاجُني فيه فلَا تجدَني، هل يهمّك الأمر حتّى! هل سبَق و كُنتُ لكَ شيئا خاصّا! أظنّك تعاملتَ معي بشكلٍ عامّ طيلة حياتِك، لكَم أكره نفسي حين أفكّر بالأمر، كَونك لم تردني يوما، بل رأيتُ في عينيكَ انعكاسي كما يقولون، كُنتَ بارعا في الحديث، و كُنت صامتة، بعيدا عن الكمّ الهائل من الجمل الّتي أستطيع إبهارَك بها! كُنت باردة! كنتَ تعيشُ حياتَك و أنا بدوري كنتُ أموت!

للَحظة تذكّرتُ يومَ كُنتُ أموت حقّا بينما كُنّا نتشاجر شِجارَنا الأوّل، أخرجتُ فيه مكنونات قلبي، أفصحتُ لكَ عن كلّ شيء.. لم يبقى شيء

لمعرفته، الشجار يفضح كلّ شيء، رأيتُ في عينيكَ اللّاحبّ، رأيتُ التهرّب و الرّغبة في إنهاء الحديث فحسب، كنتُ أعلم، صدّقني شعرتُ بنفورِكَ الغريب ذاك، أبيتُ أن أعترف به لنفسي فحسبُ!

كنّا نضحك في بداية الأمر، ضحكنا كثيرا، كنّا سُعداءَ جدّا بما نحضى به من تقاربٍ، أو ربّما أنا الوحيدة الّتي سعِدت، ربّما كُنت تضحَك لي بتكلّف فحسب، ربّما لأنّ الخيار لم يكن خيارك!

ساد الصمتُ بيننا للَحظة، أشعلتُ النّار بسؤالي كما اعتدتُ أن أُشعِلَها.. قلتُ:

-هل لي أن أسألك سُؤالا؟

قلتَ:

-نعم، تفضّلي..

قلت بينما أبلع ريقي:

-هل حقّا يروق لك تمضية الوقت معي كما تفعل الآن أمْ أنّك مُجبرٌ فحسب؟

أذكر وجهَك، صدمتُك! كان وجهُك يخبرني بالإجابة قبلَك دائما، أخبرَني هذه المرّة أيضا، لكنّك بقيتَ تتهرّب!

قلتَ حائرا مُنصدماً:

-تحسنين انتقاء الأسئلة الّتي من المفترض أن يبدأ منها الشجار..

بقيتُ أرمقك بنظَراتٍ ثابتة، رفعتُ حاجبي بانتظار الإجابة أو كدليل لك على جديّة الأمر، ثمّ على رغبتي الشديدة في أن أُعاقبَك.. صدّقني أتشوّق لتقطيعِك إربا! لكن لا أستطيع، ففي الأخير أنا لستُ أنتَ.

قلت رافعاً يديك:

-أنتِ دائما هكّذا! كثيرة التفكير، كثيرة التسائل، محبّة لإفساد اللحظات المرموقة بأسئلتها، حتّى لو كانت إجابتي مناسبة لكِ جدّا فإنّها لن تكفيكِ، أليس كذلك؟

بدأتُ أعدّد لكَ الأشياء الّتي فعلتَها و الّتي لم تفعلها و كان يجب عليكَ فعلها..

قلتُ:

-ما نحنُ حتّى! ما طبيعةُ علاقتنا؟ لمَا تصرّ على هذا النوع الغبيّ من الغموض، لِما تُجبرني على ارتداء ثوب الغموض بينما أنا لا أطيقُه فيكَ حتّى! هل تفهم ما أمرّ به كنوعٍ بسيط من الاهتمام؟ هل سبَق و خِفتَ أن يكون قد حَدث لي شيء إذا ما تأخرتُ في الردّ عليك! حسناً أنا فعلت، بينما كُنتَ تتجاهلُني عمداً كنتُ أسأل نفسي عن احتماليّة كونه شيء غير مرغوب قد وقَع لك، أستبعدتُ الأمر تارة، ثمّ قُلتُ لمَ لا، الموتُ حتميّة و يمكن أن تأخذ منّا أيّ شخصٍ في أيّ وقت، ألم يسبق لكَ أن خِفتَ فقداني باعتباريَ شخصا عرفتَه فحسب؟ الحبّ ليس مشروطاً، الحقيقة الوحيدة الّتي لطالما آمنت بها هي أنّك لم يحدث أن اعتبرتني شخصا حقيقيّا في حياتك و هذا وحدَه يكفي.

صرختُ في وجهك:

-الحبّ ليس إجباريّا يا هذا!

لم تقل شيئا، كتمتَ غضبكَ، أخذتَ تضربُ الجدار، ما دخلُ الجدار؟ كان ثالثُنا، لم تستطع أن تضربَني، ليس لأنّك واقع في غرامي أو شيئا كهذا بل لأنّك رجل لا يضربُ امرأة، و بما أنّ الجدارَ صديقي الوحيد الّذي لا يمانع أن يعانقني حين تغيب فإنّك تفضل أن تحطمه، كي أعود إلى أحضانِك دائما!

أكملتُ بعد تأكدي بأنّك قد بلعتَ لسانَك فعلا:

-هل تعرف عنّي شيئا حقيقيّا حتّى! من أنا.. متى ولدت، أغنيتي المفضّلة، نوعي الغنائيّ المفضّل، كيف يتغيّر مزاجي فجأة! هل سبَق لك أن سألتني عن نفسيّتي متعمّقا! أو قلتَ "كيف حالُكِ اليوم" أو "كيف حالُكِ كلّ يوم!" بينما تعني أن تسأل عن حالي حقّاً! رأيتني أعاني في الزواية لكن لم تُكلّف نفسكَ عناء بضعَ كلمات للتخفيف حتّى ، لم ترغب في الحديث في غالب الأوقات، إظافة إلى أنّني بينما كنتُ أغرق في المرض، كنتَ أنت تزيدُني مرَضاً! و لم تكترث، لم يعنيكَ الأمر..

لا أتذكّر ما قلتَه لي ذاك اليوم بالضبط كردّ على ما سبَق، كان ردّك عنيفا، كَرِهتك ذاك اليوم، عهِدتُك مُسالما ثمّ عندما رأيت منك ذلك الجزء خِفتُ على نفسي، سألتُ نفسي:

-بماذا تورّطتُ أنا!

كُنّا اثنينِ و الموتُ ثالثُنا، كان الموت يقترب منّي، ثمّ يبتعد حين يُصبح على بُعد خُطوة، قال الطبيب أنّني نجوتُ من الموت بأعجوبة، قال أيضا أنّني ما كنتُ لأحيا ليلة أخرى لو لم أبيتَ في المستشفى تلك اللّيلة، كنتَ أنتَ داخل بيتك الدافئ، لا تشعر بشيء، و كأنّني غيرُ موجودة، و كأنّ تنفسّي طبيعيّ جدّا، و كأنّني لم أوشك على الموت! قلتَ "ربي يشفيك" حينما أحطتُك علماً بالأمر ، رمقتُ رسالتَك تلك بألف نظرة استسلام ثمّ رميتُ الهاتف فوق السرير و نِمت لساعات طويلة.. أمسكني الموت قبل ثلاثة أيّام من طرفِ ثوبي، كادت النّار أن تحرقنِي، كنت لأُكمل لك عدّ المرّات الّتي لمحتُ فيها الموت لو لم يناديني النّوم لأتناساك قليلا، فكما تعلم، من لم يستطع أن ينسى، فلينام!

انقطعتُ عن الكتابة يومَ البارحة، كنتُ مريضة بعض الشيء، درستُ قليلا كاستعداد للبكالوريا، صدّقني.. لا تهمّني هذه الشهادة، أعلم أنّني قادرة على تجاوزها، لكنّني لا أكافح!

لستَ هنا، و لا أظنّني هنا أيضا، يلزمني مزاجٌ رائق للكتابة، يلزمني مزاج رائق للدراسة هي الأخرى! و لا أظنّني سأحصل عليه في وقت قريب!

حصلت مواقف صادمة عديدة البارحة، عداكَ أنت!

البارحة، اكتشفتُ زيفَ شخصٍ لطالما اعتبرته ملجأً حين تضيق بي الدنيا من كلّ جهة، كشَف نفسَه بنفسِه، و بدوري أعطيته الفرصة

ليكشف نفسَه لي! ضحكتُ على نفسي بينما أبكي، كان بكاؤي مأساوياً، كبكاء النّساء اليائساتِ من حياتهنّ، بعد أن بلغوا سنّ الثلاثينيّات، اعترف لي بكلّ شيء، و لم أُصدَم البتّة، في الآونة الأخيرة شعرتُ بأنّ ما حدث داخل رأسي سيحدث في الواقع قريبا، و كما توقعت! حدَث!

كانت علاقتُنا نقيّة جدّا، أو ربّما هذا ما تبيّن لي، ربّما كانت نقيّة من جهتي فحسب!

لم يكن صديقا، و لا حبيبا، و لا شيئا آخر..

لم أعتبره شيئا فارغا كتلك المصطلحات، اعتبرتُه أخاً داخل قلبي، دون أن أفصِح له عن ماهية علاقتنا بالنسبة لي، لكن بعد ذلك اكتشفتُ نيّته الخبيثة، طلَب مني ذات ليلةٍ أن أقبل بأن أكون صديقتُه الحميمة، قال أنّه سيعتبرني توبتَه النصوحة، و سيبتعد ابتعاداً عن أيدي و أجساد الفتيات لم يسبق ليديه أن شهدت ابتعادا مثلَه!

صدّقتُه، للَحظة قلتُ:

-لمَ لا! لعلّها فرصة لأَمضي قدُما و أنسى الماضي!

لم يكن أنتَ، كان رجلاً مقرفا، من أقرَف من عرفتُ إلى حدّ الآن..

تحدّثنا كما لو أنّنا حبيبان، كانت تجربة مقرفة بالفعل! لم يسبق لي أن تخيلتُ نفسي في موقف كهذا ،قلتُ أنّني أرى الأمر غريبا، بيَد أنّني اعتدتُ ألّا أكنّ له شيئا! ثمّ استيقضتُ صباحاً بينما يأكلني الذنب حتّى قدَماي، همستُ لنفسي:

-ماذا فعلتِ!

بعد تفكير طويل، قرّرتُ إنهاء العلاقة الّتي لم تبدأ بعد، دخلتُ المحادثة فورا، قلتُ:

-أريد التحدث معك في أمر ما!

كان هو أيضا يحاول ابتلاع كلماتٍ معيّنة على ما أظنّ، أو ربّما هذا ما تبيّن لي!

قال:

-نعم!

قلتُ دون تفكير، راغبةً في أن أنهي هذه العلاقة الكارثيّة فقط:

-أظنّ أنّ علاقة كهذه لن تنجح! فكما تعلم اعتدتُ أن أتحدث معك دون أن تكون لي نواياً أخرى!

أجاب بتِلقائية:

-كنتُ سأتحدث معكِ في ذاتِ الأمر.

سعِدتُ لكَوني قد أنهيتُ الأمر بهذه السهولة، لا أدري إن قال ما قالَه لأنّني قلتُ ما قلت! أم أنّه حقّا كان ينوي إنهاء العلاقة التي لم تبدأ، بيَد أنّه لم يكن ليخسر شيئا لو أكمل اللعبة فحسب!

يا له من أمر محيّر! زيفٌ ليس له قابليّة القراءة وراء الشاشة!

عاملتَني كأيّ امرأة أنتَ الآخر! كيف لم أتوقعها من شخصٍ آخر!

التجأتَ إليّ في وقت فراغك تماما كالمزيّف الّذي تحدثتُ عنه قبل قليل..
قريبا لن يبقى منكَ سوى الفتات داخل قلبي، لن اذكرَ شيئا منكَ و إن كانت قُبلتُك! أخطّط لانفصالنا الروحيّ ذاك منذ زمن، ذلك الانفصال الّذي لم يسبق له أن كان حقيقيّا سوى داخل رأسي! صدّقني..
سأمحيكَ من حياتي و إن كان ذلك يعني موتي!
كنتُ أموت.. كيف لم تُلاحظ؟!

انكسرت شاشة هاتفي هذا الصباح، تماماً كما يُكسَر قلبي كلّ ليلة مائة مرّة، أستمعُ لأغنية تتطابق مع شعوري.. تقول كلمات الأغنية:
-and you don't seem to understand!
و بالفعل لم و لن تفهم ما أواجهه هنا، لن تبصر حجم المعاناة الممثّلة في حياتي أبدا! ستغرق داخل غفلتك إلى الأبد، و لن أقول سيأتي يوم فتخسرَني، أخشى أن أخسر نفسي قبل أن تخسرني.

لم يعد هناك شيءٌ ليُكتَب، كتبتُ كلّ شيء!
قُل لي، عن ماذا يفترض بي أن أتحدث اليوم؟ لمَ ترفض هذه الرواية الاكتمال دون أن تكملني، وحدَك تعلم أنّها ليست برواية، تعلم أنّها حياتي! طيلة حياتي كتبتُني بينما أبكي، لذا قدّستّ بكاء النّساء و سمّيته قدرة نسائيّة، فكما هو معروف "الرجال لا يبكون!" أليس كذلك؟

ربّما لا تعلم! ربّما لا يمكنك فهمُ كميّة المعاناة الّتي واجهتها في حياتي الماضية، 20 سنة تُحسَب بأصابع اليد! بالنسبة لي كانت عبارة عن تعقيدات، مسائل عائليّة، الكثير من الصراخ، ثمّ جيء لي بالمزيد ممّا يفترض بي أن أُعانيه، فرِحتُ به لمدّة قصيرة، شهر واحد أصابني الملل فيه، ثمّ شهر آخر اخذتُ أسأل نفسي :

-ماذا عساي فاعلةٌ بهذا الشيء الّذي لا أعلم إن كان نقمة أو نعمة!

ثمّ حين سُلب منّي، كنتُ قد باشرتُ معه الشهر الرابع، لكن لم يأتي الرابعُ لأفرح فرحا كاملا.. رغبتُ به! رغبتُ به رغبةً شديدة! كان حزني الأكبر! عقدتي الحالية.. أكتب هذا من داخل أعماقي، أشعر كما لو أنّني أتآكل، لم أعد أستطيع التحمّل.. أخافُ أن أفقدَ نفسي، أنا حقيقيّة جدّا، كلّ ما أكتبه حقيقيّ، ما عاد بإمكاني الإنكار، قضيّتي هي عقدتي الأولى، ثمّ هناك الموت..

لا زلتُ أموت، ربّما باستطاعتكَ التنازل قليلا، قبل أن أرحل إلى الأبد، أخذ منّا العام الماضي فتاة بعُمري، فقط لو رأيتَ جمالها، كما لو أنّها دمية باربي، إظافة إلى أنّها لم تكن تعي ما تفعل طيلة الوقت، لذا ماتت.. لعبت بالنّار فماتت!

ثمّ جدّي.. رغم أنّه لم يكن قريباً من احفاده قرباً كافياً، إلّا أنّه استطاع أن يُبكيني في الأخير، فقط لو ترى وجهي الآن، حالتي مُزرية، لا أظنّ أنّني سأتحسن قريبا، لم يعد الأمر جسديّا فقط، اخترقني الحزن إلى الداخل، تمنّيتُ أيضا أن تكون مجرد كلمات فارغة!

لم يعد باستطاعتي أن أكتب، أحيانا أرغب في التخلّص من هذه العادة، أرميها عنّي إذا ما أبَت مغادرتي، أفكّر في الانعزال إلى الأبد، الانطواء داخل قوقعتي، الابتعاد عمّن أحبّهم و عمّن لا أحبّهم، أقتلَ نفسي بالطريقة الصعبة، ببطء! شيئا فشيئا!

ثمّ أراكَ هناك، تقف بشجاعة، تواجه كلّ أشغالِك و تنتهيَ منها في ثانية، تأتي إليّ لتراني جالسة كعادتي، جالسة!

فقط لأنّني لو وقفتُ مثلكَ قد أسقط! المرّة الأخيرة الّتي وقفتُ فيها بطريقة تِلقائية كِدتُ أسقط من ارتفاعٍ عالٍ، أحيانا قد يكون المرض الخفيف ثقيلا في الأماكن الخاطئة، ألا توافقني الرّأي؟

أعطِني طريقة واحدة تُنهيني دون أن أضطرّ لأن أقف من مكاني رجاءً!

إن كنتَ تخطّط لقتلي اقتلني اليوم، قل ما تريد، لا أريد زيفاً في حياتي بعد الآن، إن كنتُ لا أروق لك، قلها لي اليوم قبل الغد، اشتمني، سمّني بأبشع التسميّات كما فعل أحدهم، ثمّ غادر حياتي، أو اِبقى إن أردت، ابقى.. من سيخيّب آمالي إن غادرت! كيف لي أن أعيش دون أن تقتلني كلّ يوم.. أرجوكَ ابقى، اعتدتُ التأذي.

عزيزي.. اقتربت النهاية، أكادُ أبكي، سأنهي كلّ شيء، أضعُ نقطة، و أنسى أنّني من كتبتُ ما سبَق، أقرأ كما لو أنّني قارئة فحسب! أنسى أنّني لازمتُ كؤوس القهوة طيلة أيّام كتابتي لكلّ كلمة، أنّني حرصتُ على عدم خدش نفسيّتي كي لا تؤثر على شعور القارئ، أخشى أنّني فشلتُ

في هذا! كتبتُ بينما يتحكم مزاجي في كلّ حرف أكتبه، لم أعد أستطيع رؤيتك هناك، اختفيتَ تماما، تلاشيت كما يتلاشى الغبار، لم تكن غباراً اسمح لي باستبدال هذه العبارة البغيضة، لعلّك لمحتَ اختلاط الضوءَ مع تلك الحبيبات الطائرة في السمّاء، كنّا نمرّر أيدينا عليها بينما تصبح أيادينا مشعّة حين كنّا صغاراً، تشبهها كثيرا! لامعاً.. واضحاً جدّا، غامضا وَ غير مفهوم!

في الأخير، قرّرتُ توديعَك، تبيّن لي أنّكَ لم تكن و لن تغدوَ صالِحاً لي، بيَد أنّك ضبابيّ جدّا، ناضجٌ تارة و متهربّ تارة أخرى، يقهرني كونكَ لا تصلح للحبّ بهكذا طريقةٍ، تجعلني حائرة من سبب وقوعي في حفرة لا تناسبني مثلكَ، لِمَ طرقتَ بابي إن كنتَ تنوي أن تأخذه نحو بيتك و تترك منزلي عارياً! لمَ وعدتَني بوعود كنتَ تعلمُ جيّدا أنّك لستَ أهلاً لها! لم تفعل شيئا سوى استنزافي و أكليَ من الداخل!

تمنيتُ لو تشاجرنا، لو لم تكن بارداً حتّى في الشجار! ربّما كانت تلك الشرارة لتنمو! فتصبح شجيرةَ عائلة!

في الأخير.. لم يحصل شيءٌ في الأخير، و هذا ما يجعل روايتي مملّة، كانت علاقةً سامّة أكثر من المعتاد، أبعدَ ممّا روَيتُها، تفاصيلٌ كثيرة جعلت رأسي ينشقُّ ألماً، رائحة السجائر المنبعثة من الكلمات، لا اكتراثُ الرجال، و اهتمام النّساءُ المُبالغ فيه.

وددتُ أن أقول شيئا لكلّ امرأة..

توقفي عن تقديم الحبّ، لن يروق لكِ الأمر إن أصبحت الرسائل غير مفهومة، معقدة.. بينما لم تكن شيئا مهماً لثعبانكِ الخاصّ منذ البداية، عقّدتِ الأمر، فبدأ مُغايرا جدّا، ربّما لو لم تكوني الشخص الّذي يهتم دائما و يُعطي لكلّ حرفٍ حقّه ما كنتِ لتعاني هكّذا!
أمّا إن كنتِ تبحثين عن تشجيعٍ ما، أو إن كان الأمر يتعلق بالبقاء أو المغادرة- بيَد أنّه دائما ما يتعلّق بهما- فخُذي بنصيحتي و غادِري إلى الأبد، لا تحاولي مرّة أخرى، دعيهم يحاولون من أجلك.

بكيتُ كثيرا هذه الّليلة، كم تخيفني النهايات! تجعلني أرتجف، يدي الّتي لا تكفّ عن الارتجاف كتبت كلّ ما سبَق، أرجو أن تُقدّر و لو قليلا، لم تعد زلِقة كما كانت حين كنتُ أتسلّق من فوق ظهر أبي بينما يمارس الرياضة! صدّقني.. لم تعد! جرّبها إن أردت! لا تجعل أجزاء حياتي منسيّة، على الأقلّ قدّر ما أكتبه إن كنتَ لا تقدّرني!
كتبتُ الصفحات الأخيرة هذه بينما أستمع إلى أغنية هادئة جدّا لِlana del rey.. تقول الأغنية:

Come and take a walk In the wild side

Let me kiss you hard In the pouring rain

!You like your girls Insane

..Chose your last words, this is the last time

!Cause you and I.. We were born to die

ربّما سأختفي يوماً و لن يكون بحوزتك سوى ما كتبته يوماً!
من يدري!

-النهاية-